العلم الثقافي

المدير: عبد الله البقالي
سنة: 54
سنة التأسيس: 1969/2/7
الخميس 6 أبريل 2023
الموافق 15 من رمضان 1444

10 ، شارع زنقة المرج حسان الرباط
Bach1969med@gmail.com

بالنّار فضَح جواد ما خلْف السِّتار !

لَنْ أسْتعيد أوراقي القديمة التي لم تحدْ قَيْد ظلٍّ عن شمس الفنان المسرحي أحمد جوَاد، هو نفسُه كان رحمه الله يُذكِّر رُواد فيسبوك ببعض قُصاصاتها المنشورة في الجرائد، وكان يُرْفق هذه الكتابات المُقْتطفة بعناية من الأوراق السَّيارة، بعبارات الفخر من قبيل وليس قبيلة: (هذا ما كتبه عني الشَّاعر والصديق الوفي فلان..)؛ بل إنِّي ورَّطْته معي في لعبة البيضة والحجر التي لا يجيد الجمع بينهما دون انكسار، إلا ساحر أو شاعر، عساني أخفِّف في نفسه المقهورة، ضائقة العيش التي تهيض بهمومها أعْتَى الجبال، فكان آخر ما كتب في الصفحة الأخيرة لجريدة «العلم»، عمودا يقطر بالأسى وهو يرثي رحيل الممثلة القديرة «خديجة أسد»، تُراك تسْمعُني الآن أخي جواد وأنت هناك إلى جِوار الجواد الكريم، ماذا يُفيد الآن الكلام بعد عرْضك المأساوي الأخير الذي ذهبْتَ ضَحيَّتهُ قُرباناً في الشَّارع العام على عتبة وزارة الثقافة، وما زال التَّحْقيق جارياً كما جَرتْ في جسدك النَّحيل المادّة الحارِقة، واندلعتْ معهُ بعْدَ أنْ ثواكَ الرَّدى الأقاويل بفتيل اللسان الطويل !

الأهمُّ من كُلِّ هذا البُكاء الذي لن يَعْدم كمِّيةً وفيرةً من المناديل ليجفَّ سريعاً، هو العرض الأخير.. عَرْضَ الإحتراق الذي أدَّاه أحمد جواد باسْتِماتة جعلْتهُ ينتقل بسرعة إلى خشبة أوْسع في العالم الآخر، ولكن بما أنَّ ستار المسرحَية مازال مفتوحا، بما أنَّ الأقنعة ذابَت بلفْح النيران التي فتحها جواد ليْس على نفْسه فقط، بل تَجاوزتْهُ لتُعاقب اللوبي المُتحكم في الريع الثقافي والفني الذي احترف القاعات المُغلقة، بما أن جواد خَوطب في بلاغ الوزارة ليس باسمه كفنّان ومُنشّط ثقافي معروف،

ولكن كأي شخص أو مواطن مجهول بدون هوية فنية أو أثر.. لكُلِّ هذا الحيْف لن نُسْدل السِّتار بل سنندْلع مع جواد كعاصفة تستنفرُ وحش الغابة بين الأشجار، هو الذي كان يُهَيِّءُ لعَرض مسرحية جديدة، وبعث لي عبْر الواتساب قبل أيام من الفاجعة المُروِّعة، بنَصِّ عمله المسرحي الجديد مع هذه الرسالة: (أضعَ بين يديكم الكريمتين نص عملنا المسرحي القادم.. ملاحظاتكم ورأيكم يهمنا، قراءة ممتعة).. هو الذي عاش معلوماً وحين مات خوطب بصيغة المبني للمجهول..هو الذي كان يسْتعدُّ على قلم وساق لعرض مسرحية تعكس الشعورَ الفادح بالقهر وتحْمل أيضا عنوان (هو...!، وهي عن ديوان «كناش لمعاش» للزجال إدريس المسناوي، دراماتورجيا: أحمد جواد.. ألم أقل إن المسرحية لم تنْته بعد وإنَّ الرماد ما زال يُخيِّم برائحة الإحتراق في مشهدنا الثقافي والفني الموبوء بغيلان الفساد، لذلك سأترك السِّتار مفتوحا لنقرأ جميعا شيئا من ذلك الـ (هو... (! الذي هو أنا وأنت وأنتم وكل الوعي الجمعي الشقي، بل إنَّه يُجسِّد المظاهر البشعة التي يعيش مِحْنتها أهل الأدب والفكر والفن في هذا البلد !

لا أُبالغ إذا قلتُ إن هذه المسرحية تعكس جليا السِّيرة الحياتية للفنان أحمد جواد، وقِسْ على ذلك إلى آخر الكفن، سيرة كل الذين يُكابدون التَّهميش والإقصاء، ألم تر كيف تُفقرُ الأقلية فاحشة الثراء أغلبية المجتمع التي لا تجد معاش يومها، نقرأ من هذا المونولوغ المسرحي:

-الكاتب : **بغيت نعرف راسي من رجلي ف شهادة لساني ومدادي / بغيت نعرف نفسي الميتة من الحية / ونجمع من الباقي ف حياتي زادي / بغيت نحل كناش لعقل والقلب قدام الروح / ونعري ع الأسئلة المدفونة ف الدماغ من يوم ميلادي / بغيت نتعلم نكتب الحرف وهو ف كرش امو / ولا نتيه ف قراية احوال الفال على أحفادي / بغيت نعرف نكتب ،شكون انا ..؟**

-القلم: **الدنيا مقسومة على ثلاثة: الثلوث الاول فاز بها / الثلوث الثاني طامع فيها / الثلوث لاخر مقسوم على جوج: النص الاول شاد الميزان والنص الثاني عفطوا عليه وزادوا القدام .**

لا أُخْفيك حسرةً عزيزي جواد وأنا أراك تَسْتعجل الرحيل أخفَّ من خيط الدخان، كان بوُدي أن تتنظر لنتجاذب أطراف الرَّأي في هذه المسرحية التي رُبما ستُعرَض يوماً وأنت بين شخوصها تلوح بصيغة جنارة الغائب، لم أكن أريد أن أجيبك بعد يوم أو يومين من التوصل، بكلمة (رائعة) التي تُفيد التَّنصُّل، وما أكثر من يستعمل هذه الكلمات المَدْهُونة، لينهي بالمجاملة كل صداع الرأس الذي تُسبِّبه المجادلة، وقد اتَّضح الآن أنها أكثر من رائعة بل إنها مسرحية نبوئية ورؤياوية، هل تعلم لماذا أخي جواد.. لأنَّك لَم تُجهِّز حواريتها الدرامية القاسية بمعزل عن قلم تُحرِّكُهُ يدُ الأقدار!

محمد بشكار
bachkar_mohamed@yahoo.fr

المعتصم العلوي

ديوان الأبيل

قدر بعض الشعراء أن يولدوا من جديد ويعودوا بعد ردح من الموت للحياة، ذلك ما حدث مع الشاعر الراحل المعتصم العلوي، الذي انبعث في حياة أخرى ديوان شعري بعنوان «ديوان الأبيل»، ضمن منشورات بيت الشعر في المغرب بدعم وزارة الثقافة (2022)، وهو من إعداد الشاعرين المعتمد الخراز وأسعد البازي، وتقديم الشاعر محمد الشيخي.

يمثل الشاعر المعتصم العلوي أحد شعراء التجربة الشعرية الجديدة في المغرب الذين برز صوتهم الشعري منذ الثمانينيات من القرن الماضي، حيث شارك في عدد من الأمسيات الشعرية، ونشر قصائده في بعض المنابر الثقافية وعلى الخصوص صفحة «حوار» في جريدة «العلم» التي كانت تمثل ميناء لانطلاق وبروز عدد من التجارب الشعرية الواعدة.

ومما كتبه محمد الشيخي في تقديم الديوان الموسوم بـ «في أي كفن يرتمي الشعر حياة» نقرأ:

«ننتهي من قراءة هذا الديوان، لتشتد رغبتنا في قراءته من جديد، لأننا أمام شاعر أصيل ، لم ترأف به الحياة وتمنحه ما يستحق من فسحة من الوقت لإكمال كتابة قصيدته. ومتى رأفت الحياة بالشعراء الأصلاء الذين يعانون ويكابدون الألم من أجل إعطاء المعنى لهذا الوجود، ولزرع الفرح في تجربة الحزن. رحل الشاعر المعتصم العلوي، وترك شعلة الشعر متوهجة ليستلمها شاعر آخر قد يولد يوما ما! ليواصل كتابة القصيدة التي لم تكتمل، وهل تكتمل؟ وهل للشعر آخر؟ بل وهل له بداية؟!

ويبقى صوت الشاعر المعتصم العلوي مسترسلا بلا نهاية:

أريحي البحر من سفري
أريحي الورد من نظرات زينب
كفى بالحلم أغنية، وبالحجارة رقصة أخرى
يعلقها الأبيل بصدر معبد.
كفى بالحزن في وطني وحيدا جاء يكتب
بالهديل سكون مشهد. جاء يشهد لي
بأعراس الدروب وباعتذاري عن نغيب الحرف
في نخب القيود وعن حصار فيك يصعد
كم سأذهب. كم سأصلب في فواصلك العتيقة
نورسا حتى الخطيئة. كم أهاجر بالحقول
فقد ينام الماء في عينيك ليلته البطيئة».

أما الشاعرين المعتمد الخراز وأسعد البازي مُعدًّا الديوان، فقد كتبا في تقديمهما أن أبرز «مَا ميَّز حياة المعتصم العلوي هو اختياره العزلة والخلوة، حيث كان بيته في «حي الطلعة» في المدينة القديمة بتطوان تكيته التي لا يفارقها، ولعل هذا الإختيار الحياتي يفسر لنا اختياره لقب «الأبيل»- الذي يعني حسب «لسان العرب»: الراهب- رمزا إبداعيا اتخذه لازمة في قصائده، ووقع بع رسائله، وهو لا غرو سبب كاف كي نتخذه عنواناً لديوانه الذي لم يمهله العمر كي يجمع قصائده، تاركا إياها موزعة بين صفحات الجرائد، أو مخطوطة غير منشورة.»

يقع هذا الديوان في 94 صفحة من الحجم المتوسط، وطبع بدار المناهل بالرباط، لوحة الغلاف بريشة الفنان الزبير الناجب.

دراسة وتحقيق: يوسف الحزيمري

تحفة الإخوان في مسائل الإيمان

لأبي الوفاء علي بن عطية الشهير بعلوان الحموي الشافعي

ياسين حكان

عن مطبعة البصيرة بالرباط، أصدر الأستاذ الباحث الدكتور يوسف الحزيمري، حديثا، دراسة وتحقيقا بعنوان: «تحفة الإخوان في مسائل الإيمان: لأبي الوفاء علي بن عطية الشهير بعلوان الحموي الشافعي»، وقدم لهذا الكتاب الدكتور عبد القادر بطار، أستاذ العقيدة والفكر الإسلامي بجامعة محمد الأول بوجدة.

ويعتبر هذا العمل رابع إصدارات المؤلف، الذي يجمع بين البحث في مجال الدراسات الإسلامية وتحقيق المخطوطات، حيث صدر له على التوالي؛ نظم العقيدة الحوضية: واسطة السلوك المبينة كيفية السلوك(2014م)، ورسالة مطلع النيرين فيما يتعلق بالقدرتين (2016م)، وكتاب صناعة الجدل عند مفكري الإسلام (2022م).

بين دفتي الكتاب، 151 صفحة من الحجم المتوسط، موزعة على قسمين؛ قسم أول، يضم الدراسة، وفيه فصلين؛ تطرق فيه الدكتور يوسف الحزيمري إلى ترجمة لصاحب الرسالة، مبرزا أهم محطات حياته، انطلاقا من ذكر شيوخه وتلاميذه، مع الوقوف على مؤلفاته العلمية دون نسيان التذكير بمكانته العلمية، وتاريخ وفاته، بالموازاة مع تخريج عقيدته المختصرة، بالإضافة إلى التفصيل في نسبة الكتاب ووصف النسخ المخطوطة والوقوف على تفاصيلها.

وقسم ثاني، يضم التحقيق، عمل فيه الباحث على تبيان جملة من المسائل المتعلقة بأصول الإيمان، حيث أن مسائل هذا التحقيق لا تخرج عن المذهب الأشعري السني، وأسهب المؤلف في ذكر التفاصيل المتعلقة بقسم الإيمان، وأهمية الاشتغال في علم العقائد وبالخصوص مبحث الإيمان، كما تضمن الكتاب فهرسا لتخريج الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الموجودة في المتن المحقق.

وتكمن أهمية الكتاب في تسليط الضوء على العناصر الخمسة المكونة للإيمان، وفي تبسيطها لطلبة العلم وتقريبها من العامة؛ وهو منهج معروف لدى علماء الإسلام في تصنيفاتهم، كما أنه اهتمام مغربي برسالة مشرقية تتناول العقيدة الأشعرية السنية.

عبد الجبار العلمي

الرواية العربية الجديدة وأزمة الانسان العربي

عن منشورات المركز العربي للدراسات الغربية بمصر، صدر منذ سنوات، كتاب في نقد السرد الروائي جدير بنفض الغبار عن حروفه، هذا المؤلف أو الدارسة هي للكاتب المغربي الدكتور عبد الجبار العلمي وتحمل عنوان «الرواية العربية الجديدة وأزمة الانسان العربي»، وتسلط الضوء على إحدى عشرة رواية لكتاب ينتمون إلى عدة أقطار عربية هي: المغرب - مصر - سوريا - الأردن، وهي ثمرة قراءات متفرقة زمنيا لبعض الأعمال الروائية التي صدرت أغلبها في العقد الأول من الألفية الثالثة.

ويتميز المتن الروائي الذي تناولته هذه الدراسات بالتنوع في طرائق الاشتغال حسب تقديم الكتاب، كما تنتمي إلى اتجاهات روائية مختلفة، يمكن تصنيفها بشكل عام كما يلي: الرواية الواقعية، وتمثلها ثلاث روايات هي: «ثقوب في جدار الزمن لعواطف أحمد الباتوني، «من فرط الغرام «لناصر عراق، «الأرملة السوداء» لصبحي فحماوي. ثم الواقعية الجديدة، وتمثلها روايتان هما المصري لمحمد أنقار – واحة الغروب لبهاء طاهر. وأخيرا، رواية الخيال العلمي، وتـــدخـــل

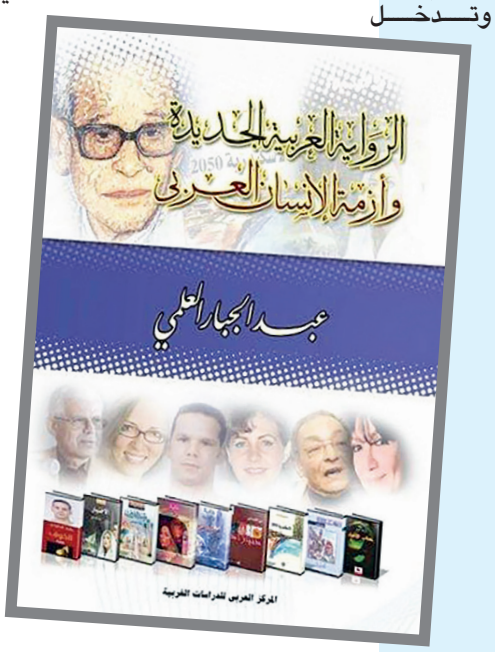

في إطارها ثلاث روايات هي:»بذور الشيطان – الأختيار وكلاهما للكتابة السورية لينا كيلاني – الإسكندرية 2050 لصبحي فحماوي «. والرواية الجديدة وتنضوي تحتها ثلاث روايات هي:»دانيازاد « لمي التلمساني، «كتاب الأسرار» لسلوى النعيمي،»الخوف» لرشيد الجلولي.

ويذكر عبد الجبار العلمي في تقديم الدراسة، على أن القاسم المشترك بين هذه الأعمال، هو انشغالها بهموم ومشكلات الواقع الراهن سواء على المستوى العربي أو على المستوى الإنساني العام . يقول بهاء طاهر في هذا الصدد «أنا أكتب عندما يلح علي سؤال، قد يكون تاريخيا أو معاصرا، لكن في كل الأحوال، لا أكتب من برج عاجي، بل مهموما بالواقع ومنشغلا بالأسئلة التي يطرحها «.

تجدر الإشارة إلى أن المتن الروائي الذي تمت دراسته في هذا الكتاب حقق للكاتب (حسب قوله) أثناء قراءته المتعة والفائدة، ولولا ذلك ما كان ليتناوله بالدراسة والتحليل .

يقع الكتاب في 135 صفحة من الحجم المتوسط، وصدر سنة 2013 بمصر في طبعته الأولى.

علي بلجراف

منطلقات وآفاق

قراءة محمد شحرور المعاصرة للذكر

عرض: سعيد المنصوري

ضمن منشورات مؤسسة «باحثون» للدراسات، الأبحاث، النشر والاستراتيجيات الثقافية، صدر أخيرا بدعم من وزارة الشباب والثقافة والتواصل، كتاب «منطلقات وآفاق: قراءة محمد شحرور المعاصرة للذكر»، من تأليف الأستاذ علي بلجراف.

يتناول هذا الكتاب المنطلقات التي تتأسس عليها قراءة محمد شحرور للكتاب والقرآن، استناد إلى كتابه «الكتاب والقرآن: قراءة معاصرة للذكر»، الذي يعد مفتاحا لفهم طروحات شحرور المعاصرة وقراءته للذكر، وما يطوره ويؤكده من أطروحات في مؤلفاته الأخرى، وفي مداخلاته العلمية المتداولة عبر وسائط مواقع التواصل الاجتماعية، حول مشروعه الفكري بصفة عامة

تتحقق، حسب علي بلجراف، في هذا الكتاب، ذي الولادة العسيرة، باعتراف شحرور نفسه، شروط ثلاثة لازمة لكل قطيعة ابستمولوجية، ولكل تجديد فعلي في المجال المعرفي كما يحددها الابستيمولوجي الفرنسي «غاستون باشلار»، وهي: إنتاج إشكالية جديدة؛ واعتماد منهج جديد؛ وبناء مفاهيم جديدة. وهذه الشروط الثلاثة هي ما يمنح قراءة محمد شحرور المعاصرة لكتاب الله بصفة خاصة، والتراث الفقهي بصفة عامة، المتراكم منذ عصر التدوين في العهد العباسي صفتي المعاصرة والجدة الفعليتين، مقارنة مع قراءات سابقة ومعاصرة للتراث.

يراهن شحرور على الآفاق التي تفتحها قراءته، ليس فقط في وجه الإسلام الذي يريده دينا كونيا بمفهوم الشامل لكل الديانات، وإنما أيضا في وجه الفكر الإسلامي عموما بنفس المعنى الشامل، بل، ربما تكتسي هذه الآفاق، داخل مشروعه الفكري العام، أهمية أكبر بكثير من التفاصيل الأخرى ذات الصلة بالأحوال الشخصية وقضايا الأسرة، من قبيل أمور الزواج والإرث وغيرها من القضايا التي تناولها محمد شحرور، وفصل فيها الحديث في مؤلفات أخرى مستقلة. فالكتاب المعني هنا مساءلة نصية للقرآن، توخى فيها شحرور تجديد الخطاب الديني باعتماد عدة منهاجية ولغوية تستلهم التراكم العلمي والمعرفي الإنساني المعاصر، مع التحرر من القراءات السابقة للقرآن وللتراث وبخاصة القراءات التراثية الكلاسيكية. ولعل هذا ما مكنه من بلوغ نتائج هامة ألبت ضده بعض الذهنيات العتيقة الجامدة.

ويسعى الأستاذ علي بلجراف من خلال كتابه الجديد إلى توضيح هذه الأهمية على نحو يراعي وحدة الفكر الشحروري، رغم خوضه في تفاصيل كثيرة في مؤلفاته المتعددة، استنادا إلى وحدة الإشكالية (إشكالية القراءة) التي يتحرك ضمنها الفكر الشحروري في شموليته، انطلاقا من أن كل بحث في المعرفة، كذلك الذي يعمل محمد شحرور على إرسائه، يتأطر بالضرورة ضمن إشكالية معرفية (نظرية) ينتظم داخلها.

وإذا كان الجديد في القراءة الشحرورية يتأسس على منطلقاته المنهجية واللسانية/اللغوية والمعرفية الحديثة والمعاصرة دون إغفال بعض المنطلقات الأصيلة المتميزة على الخصوص في المجال اللغوي واللساني، فإن الآفاق التي تفتحها هذه القراءة، أمام الإسلام بمفهومه الشامل المتكون من ثلاثة عناصر أساسية هي القيم، وقد خضعت للتراكم مع تعاقب الأنبياء والرسل وصولا إلى خاتم الرسل والأنبياء، والشرائع، وقد خضعت للتطور، والشعائر، وهي تخضع للاختلاف على الدوام، وأيضا أمام الفكر الإسلامي في العالم المعاصر، فهي تكتسي قيمة أساسية، ليس فقط لأنها تتقاطع مع أطروحات فكرية وفلسفية أصيلة وعلى رأسها أطروحة الفيلسوف الصوفي ابن عربي حول الرسالة والنبوة، بل ولأنها تتقاطع أيضا مع أطروحات ونظريات حديثة ومعاصرة وفي مقدمتها أطروحة المفكر المغربي عبد الكبير الخطيبي حول التراث والتقليد والمعاصرة وعلاقة الإسلام بالغرب بمفهومه الثقافي، فضلا عن تقاطعها مع المقاربة العرفانية الجديدة التي تزاوج بين العقل والوجدان مع النهل من معين القراءة والفهم الهيرمينوطيقيين للنصوص، كما نظر لذلك الفيلسوف الألماني «شلاير ماخر».

حاول شحرور تجديد النصّ الديني ليلائم العصر الحالي ويخلّصه من التأويلات الضيقة الأحادية، التي تسيء إلى المرأة، أو الآخر، أو لا تقبل الاختلاف في الرأي. فمن رأيه أن الإسلام لا يقتصر على أتباع الرسول محمد، ويستدل بآيات كثيرة، ليستنتج أن الإسلام هو التّسليم بوجود الله وباليوم الآخر فإذا اقترن هذا التسليم بالعمل الصالح والإحسان، كان صاحبه مسلماً، سواء أكان من أتباع محمد (الذين آمنوا)، أو من أتباع موسى (الذين هادوا) أو من أنصار عيسى (النصارى). ولعل المنطلقات متعددة المداخل والتقاطعات المثمرة، مع كل من الأصالة والمعاصرة الفكريتين، هو ما يجعل القراءة الشحرورية في النهاية مندرجة ضمن المقاربات الجديدة والمستنيرة فعلا، أي، تلك التي تمارس التنوير كما حدده رائده الفيلسوف الألماني «إمانويل كانط» في تحديده المشهور لمعنى التنوير بأنه الجرأة في إعمال العقل مهما تكن النتائج. لذلك ربما، تعرّض شحرور، بسبب آرائه، لحملات تكفير شرسة واتّهم بالزندقة والإلحاد، رغم أنه ينطلق من النصّ: القرآن وسوره وآياته، لكنه يعتمد في قراءة النص على العقل الذي يقض مضجع الأصوليين الدوغمائيين الذين يهابون إعمال العقل بجرأة ويعادون الحضارة البشرية ويكتفون بالنقل ويقفون عنده.

قسم المؤلف كتابه إلى أربعة فصول، نقرأ فيها ما يلي:

الفصل الأول: القطيعة الابستمولوجية في القراءة الشحرورية، من مباحث هذا الفصل: شروط القطيعة الابستمولوجية وتطبيقها في القراءة الشحرورية، إنتاج إشكالية جديدة، اعتماد منهجية جديدة، إنتاج مفاهيم جديدة، التمييز بين الكتاب والتراث، الكتاب بين الثابت والمتحول، الكتاب ومسألة النبوة والرسالة، النبوة علوم والرسالة أحكام، الكتاب والقرآن، مكونات القرآن حسب محمد شحرور.

الفصل الثاني: الرسالة والنبوة بين محيي الدين بن عربي ومحمد شحرور، يضم المباحث التالية: حول ابن عربي، الرسالة والنبوة عند ابن عربي، في الرسالة، في النبوة، مقام الولاية، الولاية والوراثة ومسألة الاستمرارية، تلازم بين الولاية والنبوة والرسالة، إلتقائية وتقاطع بين فكري ابن عربي ومحمد شحرور.

الفصل الثالث: النص في ميزان الفهم الهيرمينوتيقي، من مواده: الهيرمينوتيقي والعرفاني، المقاربة العرفانية الجديدة، العرفان بين القديم والجديد، المعارف والدوافع في النص الديني، إشكال الإعجاز البلاغي، ثنائية الذات والصفات أو (الإله المفارق والإله «المؤنسن»)، الخير والشر، بعض دلالات مفهوم الشيطان، المؤسسة الدينية بين الجمود والتجديد.

الفصل الرابع: آفاق القراءة الشحرورية، تطرق فيه المؤلف إلى القضايا التالية: شحرور والخطيبي على طريق تصور جديد للتراث والمعاصرة، التقليدانية التراثية عائق على طريق التحرر، نحو معاني جديدة لمفاهيم الإسلام والمؤمن والكافر، الإسلام بين الفطرة والتكليف، الإسلام حنفية واستقامة، فكر الاختلاف والتعدد في الكتاب، من الأحادية إلى التعددية، المدنية والطاعة، ازدواجية الفتوى والقانون في الواقع الإسلامي المعاصر.

إلى جانب مقدمة وخاتمة، وقائمة مراجع. (قراءة مفيدة)

حاوره: عبد الخالق نجمي 1

خوسي ماريا ليزونديا كاتب ومحرِّرومحامي إسباني ولد في بلباو عام 1951 ، يعيش منذ عام 1980 في سانتا كروزدي تينيريفي بإسبانيا حيث يكرس وقته لممارسة القانون الحر منذ أزيد من ثلاثين عامًا. عمل في مجال صحافة الرأي واستمر في عمله لسنوات عديدة ككاتب عمود في(Diario de avisos) ولاحقًا ككاتب عمود في (El Día) كما كان مديرًا لمجلة (IUS) لجمعية المحامين في (Santa Cruz de Tenerife) والمجلة الرقمية (Togas y Letras). وقام كمحرر قام بتأسيس مجموعة (ENSAYOS SAHARIANOS) وتحريرها وإدارتها. كتب ما يصل إلى عشرين كتابًا في مجموعة متنوعة من الموضوعات: فن و ثقافة الباسك وعلم الجمال وأدب جزر الكناري ، عن النقابات العمالية والصحف والروايات ،. كخبير في شؤون الصحراء ،أصدر خمسة كتب.

ترجمة: عبد اللطيف شهيد2

مع الكاتب الإسباني «خوسي ماريا ليزونديا» الخبير في شؤون الصحراء

أسطورة طنجة في تعاظم مستمر

متى بدأ اهتمامكم بمدينة طنجة؟

كنتُ حاضرا في طنجة خمس مرّات؛ ثلاث منها بصفة مُتتالية. أعتقد، أني كنت مثل الجميع، أبحث وراء اسم محمد شكري والهالة التي أحاطت المدينة العالمية التي يتردد عليها الفنانون، ولم أسعَ أبدًا للاتصال بأي شخص. أظنُّ أنَّ ذلك كان أفضل ما حدث لي فيما يخصُّ علاقتي بطنجة. لو لم يكن الأمر على هذا النحو، وحدث العكس، فأنا مقتنع بأنني ما كنت لأعود، وكانت المدينة ستفقد كل سحرها واستحضارها بالنسبة إلي. فالأشياء المنيعَة هي مَلك أحدنا ولا يتمُّ تقاسمها؛ إلا مع شخص يتم اختياره ليصبح شريكًا في الاكتشاف، على الأقل، يندمجان ويُسوِّقان صورة المدينة، كما يُفعل مع طنجة، حتى تصبح مكانًا للمقامرة.

هل تعتقدون أن طنجة أسطورة أدبية؟ هل تعتبرونها كما يعتبرها بعض الكتاب مدينة أدبية بامتياز؟

الأسطورة الأدبية على هذا النحو غير موجودة، فقد تم تكوين هذا المفهوم مؤخرًا، ولكنها تتكون من وهم كورالي غير عادي وفضولي (عصابة وعطلة صيفية، شوق ومقامرة) جوٍّ ملوَّث من قبل عدد قليل من الإسبان. لم تُطالب طنجة مطلقًا أي فنان بالمشاركة في تطوير التيارات الأدبية، أو الأساليب التي كانت في أوجّها، أو تلك المشبَعة بجماليات ناشئة أو في طور التجريب، لتكون جزءًا من طليعة (رائدة)، لتتناغم مع أكثر نواقل الإبداع ديناميكية، أو ببساطة للتعلم أو الدراسة أو التبادل. لم تمنح طنجة أي شيء من حيث الدوافع أو العوامل الأدبية البحتة. فقط فضاء مزخرف ونصوص على وشك الانتهاء، مخطَّط لها من قبل. موضوعة للمقارنة من قبيل مجلة: «Gaceta de Arte» من سانتا كروز دي تينيريفي التي يديرها إدواردو ويسترداال (Eduardo Westerdahl)، من 1932-1936 (ذروة الطليعة الفنية، والتي من الواضح أن طنجة المجلة رحلة أندريه (Breton بنجامين (Benjamin Peret)، (Paul Eluard) الذي كان قد مرض قبل ذلك بقليل. أقيم المعرض السريالي العالمي الثاني هناك. في تلك السنوات كانت طنجة مثل متروبول ولم تكن سانتا كروز دي تينيريفي تحظى بهذا الاعتبار.

كثير من الناس يُجزمون بأن بول بولز رفقة ثلة من حركة جيل بيت (Beat) هم من منحوا هذه الأسطورة الأدبية لمدينة طنجة، بتقديمها إلى العالم أجمع. هل أنتم مع هذا الطرح؟

الأسطورة الأدبية لطنجة مصطلح حديث جدًا - حتى في الوقت الحاضر- وهو عمل حصري للإسبان، الذين ينقذون بذلك جيلًا فكريًا من إسبان طنجة كمرجع - الجيل الذي عاش في بداية شبابه نهاية النظام الأساسي الدولي واستقر في إسبانيا-، وهم كذلك من جيل الشباب الذي قرر أن يطلق على نفسه اسم «المتآمرون» (Los Conjurados)- ولا واحد منهم ينتمي إلى طنجة - ويعملون كمجتمع سري (وإن كان مجتمعا مشهورًا بشكل كبير)، فهم يُغذّون أسطورة طنجة الأدبية، في حين أنهم هم الوحيدون من خطط لذلك. عنوة كان عليهم استخدام أي شخص يكتب من طنجة، أو من أولئك الذين فعلوا ذلك من قبل، حتى تقديم أطفال بالتبني مثل كارمن لافوريت أو أي شخص له صلة ظرفية بالمدينة. كانت محاولة جبارة لبناء تلك الأسطورة. هم من تفرَّد بالأسطورة، فقط هم من بنوا الأسطورة الأدبية لطنجة وعرفوا كيف يبيعونها: كتب، ملاحق، مجلات سفر، إعلام سمعي بصري. ستكون أكثر جاذبية بلا شك بإضافة كوكبة من الأساطير: الكوزموبوليتية والغريبة، أصحاب الملايين والفنانين، الغموض والإباحية ... إلى حد أنه، وفقًا لرجل لامع من طنجة، بيبي كارلتون (Pepe Carleton)، ستكون مدينة ماربيا (إسبانيا)هي التي تلتقط عصا التناوب من طنجة عام 1956، 1957 ... هؤلاء هم من سيجيرون بولز (الذين لم ينالوا التعاطف على الأقل حتى وقت قريب جدًا)، وسيتبنّون جيل بيت (Beat). لا أحد يقرأ - مذكراتهم - شهودًا مميزين في ذلك الوقت، مثل تينيسي ويليامز(Tennessee Williams)، أو جور فيدال (Gore Vidal)، أو جان جينيه (Jean Genet)، أو ألين جينسبيرج (Allen Ginsberg)، أو محرر بيت (Beat) سان فرانسيسكو فيرلينجيتي (Ferlinghetti) نفسه، الذي بحث عن الجزء لسريالي لمدينة تينيريفي (إسبانيا)، في مجلة «Gaceta de Arte»، لا أحد سيجد أدنى أساس لتُبنى عليهم أسطورة طنجة الأدبية. لأنهم يمرون أولمبيا. حتى أن بولز سيشير إلى ذلك الجيل الضائع من قبل الأمريكيين الآخرين الذين يتجولون في المدينة، وهو يفكر في الأمر بهذه الطريقة عندما يكون في باريس. يتم استخدام جيل بيت (Beat) بشكل (خاطئ) من قبل المخلصين الإسبان لطنجة، برفقة الكتاب المغاربة شكري والشهادي والمرابط أو غويتيسولو(Goytisolo) الذي مر من هناك وأنخيل فاسكيز (Ángel Vázquez).

لقد قاموا بتجميع كل ذلك، خلطوا، رجوا، ورشوا أعمالهم الخاصة، أضافوا مكعب ثلج وأصبح لديهم بالفعل كوكتيل «طنجة»، وبالتأكيد النادل أيضا.

- يشير بعض النقاد إلى أن أعضاء جيل بيت (Beat)، قد ساهموا في جعل مدينة طنجة معروفة للعالم، بفضل إقامتهم في المدينة الواقعة على المضيق، استوحى العديد من المؤلفين من المدينة ونشروا لاحقًا أعمالاً أدبية، وخاصة المؤلفون الإسبان.

- لا أعتقد أنه يمكن القول إن جيل بيت (Beat) قد جعل طنجة معروفة، ولم تكن لهم أية نيَّة في ذلك، ولا أي فعل مباشر في اتجاه ذلك. فقط وجودهم المحدود للغاية مما ساعد الآخرين على استخدامهم. إذا كان هذا الجيل تكون من أجل الأدب، فإنه لم يظهر معهم في مدينة المضيق. في ذكريات تينيسي ويليامز(Tennessee Williams) وجور فيدال(Gore Vidal)، طنجة غير موجودة عمليًا، فقط أصدقاؤهم بول وجين باولز من له الفضل في ذكرها. اقتصر بورو (Burroughs) على الكتابة في طنجة، وفي رواية «عواء» لألن جينسبيرج « Allen Ginsberg» يظهر الاسم ثماني مرات دون أن يكون له وزن في القصة.

- في كتابكم «طنجة، محادثة معلَّقة» تؤكدون على أن «طنجة تفتقر إلى الثقافة المادية ولديها الكثير من الآثار غير المادية كالأدبية والثقافية الإسبانية التي نتحدث عنها». ماذا تقصدون بهذه العبارة؟

- كانت إحدى الحجج التي أتذكرها، ما يلي: تَحدُثُ العديد من الوقائع في تطوان وهناك كيانات تقوم بتطوير ثقافة مادية في المعاهد الموسيقية، مدارس الفنون، العمران، وتصدير الملصقات واللوحات ويتم تشكيل الفكر السياسي القومي المغربي: في طنجة لا تحدث هذه الخصائص، ولكن

قبل كل شيء هناك أحداث لا تتناقض، مثل تاريخ الجواسيس: ما هو موجود في مليلية (روزا ماريا دي ماداریاجا (Rosa Maria de Madariaga)) والدار البيضاء (غونزاليس ألكانتود (González Alcantud))، في طنجة يتم التحدث دون دليل واحد أن الأمر مجرد حشو. وفوق كل ذلك، فإن عمليات الخطف؛ الريسوني مثلا، كانت مناوشات تحدث دوما خارج المدينة؛ في الداخل، كما وثق لنا برنابي لوبيز غارسيا (Bernabé López García)، المواجهات بين الحمر والزُرق، على الرغم من وجود فرق مهم، كما هو الحال في إسبانيا كلها: في طنجة كانت أقل دموية.

بعضهم يتحدث عن استعمار أدبي لطنجةَ من طرف ثلة من الكُتّاب. هل تُشاطرون هؤلاء نفس الرّأي؟

سيكون استعمارًا في مرحلة تجريبية، وذلك كاف، بسبب فائض الخيال، والتمجيد في غير أوانِه وتشوق لقدوة مشتركة لرفاق جدد، يحذون حذو نموذج للعمل عليه. إن صناعة أدب طنجة، مثل كتابة المقالات عنها، ليس أدبًا على الإطلاق، بل تكوين طنجة، أدبًا مفيدًا، ثانويًا، يتحول إلى دليل، تحرير مقالات، تقرير شبه خيالي أو قصص خيالية لا يمكن أن يكون له اهتمام كبير من حيث الكيان أو الميل الأدبي البارز تمامًا. مثل مسابقات القصة الصغيرة لنقابات المحامين حول المحامين. أو ألعاب الأزهار القديمة مع شيء محدد سلفًا. يمكن أن يعطينا منه أدبا ترفيهيًا فقط، أدبا يحتوي على وصف يسهل بيعه.

أي المؤلفين الإسبان أعجبتكم أعمالهم الأدبية التي تدور أحداثها بطنجة؟

يبدو لي رودريغو راي روزا (Rodrigo Rey Rosa) هو من يأتي على رأس القائمة، يسبق الباقين بمسافة كيلومترات، أكثر من أنخيل فاسكيز(Ángel Vázquez) نفسه، إن سيطرة العنصر الإسباني في كل ما يتعلق بطنجة، لا يمنع تمامًا من عدم التمييز بين مؤلفين من البلدان الناطقة بالإسبانية.

و إن كان لا بد من مناقشة (بدون نصاب موحد) حول طنجة، أود أن أتوسع في ملاحظة بالكاد طورتُها. يتم استبدال نموذج أدبي آخر يعتمد على الواجهة ويحمل مشعله ألبرتو غوميز فونت (Alberto Gómez Font) بالنموذج الأدبي لروثييو روخاس ماركو . (Rocío Rojas Marcos) عنصر آخر لهذا التوجه، مجلة (Sures) ذات المشارب الأدبية المتعددة، بقيادة الأرجنتيني (من أصل إسباني بما في ذلك طنجاوي) سانتياغو دي لوكا (Santiago de Luca) الذي يركز على طنجة كمجهود للزهد. تسام مستحق، وبهذا المنطق، من يدري إن لم يكن الأمر «أقنوم» طنجة: إما أنها بدون حدود أو لن تكون كذلك(...)

ما رأيكم في محمد شكري؟ هل يُعتبر أهم كاتب مغربي لكل الأزمنة؟ هل هو الوحيد الذي عكس روح طنجة؟

- كما أجبتُ سابقا لقد اكتشفتُ طنجة من خلاله، لكن الآن تعبتُ من ذلك وكثيرا، أظن أن الشخصية غطت على الكاتب. بل أكثر من ذلك، لقد تحوَّل في حقيقة الأمر إلى شخصيَّة لروايات حول طنجة. فالشخصية هي من تتحكم وليس أدبه. شكري هو حياته، خصوصا أنه يحكيها، من أدبه بالكاد نقرأ عنه. كلُّ ما يُحيط بشكري، أسطورته وثقافته، أحيانا بهوس شديد، حياته المتطرفة، تُخرجك من جب الكاتب، من أدبه لتحوِّله إلىَ نوع من الذكريات، كمثال لمرابط

لا أرى أنه الأفضل (لنُزل عن شكري سيرته، ونرَى ماذا يحدث)، أفضل آخر إصدارات ليلى السليماني، ماحي بينبين و»ساحة الشرف» لعبد القادر الشاوي. ولا أعتقد أن شكري يعكس روح طنجة، هذا أمر قد يتعلق بإصدار في إحدى المجلات التي تنير سنتياغو دي لوكا.

وفقا لمذكرات محمد شكري، محمد لمرابط وبعض الطنجويين، كان بول بولز يقيم علاقات مع المغاربة. ما تقييمكم لذلك؟

يبدو معروفا كتاب (كل الكتاب) لمحمد شكري ضد بولز، أيضا الحوافز التي كانت لدى المرابط وأصدقاءه الإسبان، على الأقل حتى وقت قريب جدا، لكن «الطنجويين» الذين تبنوا الأمر في وقت متأخر، يمكنهم تغيير هذا المعتقد في وقت قصير، على ما يظهر لي.

إنه الاستمرار في إثارة ما لا يزيد عن أربعة موضوعات قديمة، على أقصى تقدير هو التغيير من رأي إلى آخر، وكلها بوصفة التكرار الصارم، «أن تجعل الحجل يصاب بالدوار»(من الأمثال الإسبانية)، أماكن عامة تصيب الناس بالملل وتجعل الأمر لا يسير على هذا الشكل، رغم الإصرار على تمديد العلكة. والأسوأ هو وضع الأمر كشأن أخلاقي، يستوجب استبعاده كليا من طرف الشخص الأخلاقي. كما سبق أن كتبت، هكذا كان بولز بروتستانتيا كلاسيكيا، وكان لشُكري تأثيرات أو حميمية تجاه كاثوليكية أصدقائه المستعمرين. وهذا ليس من الأدب، بل وعظ وضغينة. وحكمه الموجز على المشاعر والأفكار الحميمة لبولز، والمعايير الأخلاقية - التي يمكن دحضها بالحقائق الموضوعية -، فإن تصريحات شكري هي نوع من التحقيق، على «الروح القاتمة» المعادية للمغرب لبولز. أيضا، بصدى يتردد في الكاثوليكية الإسبانية. في طنجة، عند أقل فرصة، يختفي كل ما يشبه الأدب، وتحل محله الأخلاق والتقييمات والإدانات. أو استغفار ومقدسات.

لقد أصدرتم دراستين، واحدة حول محمد شُكري والأخرى عن طنجة، إلى ماذا تهدفون من وراء هذا النشر؟

ليست دراسة حول شُكري، ولا تتمحور حوله، ولم أركز اهتمامي عليه (أعترف بذلك)، لكن على الأقل لم ألتجئ فيها إلى تسليط تلك الهالة المعتادة التي تُمنح إلى القديسين حين نكتب عنهم. فالشخصنة طغت على الكاتب. في هذا الكتاب ما كُتب عن شُكري هو الأقل أهمية، لكن أعتقد أنني أبذل مجهودا، لا يبذله أحد، من أجل محاولة التفكير بصيغة فردية حول مواضيع دينية، الثقافة الإسلامية، أو الاستعمار ومواضيع ذات صلة، والتي يمكنها أن تكون أبعد عن عالم طنجة الذي نتحدث عنه. عالم طنجة المقابل.

الكثير يعتبرون طنجة دوليَّة، مدينة، دولة فريدة و ليس لها مثيل في تاريخ الإنسانية، حيث ساد تعايش سلمي بين مختلف الأديان والدول والأعراق. إلى أي حد يمكن اعتبار هذا الأمر صحيحا؟

إنها حماقة حقيقية اعتبار طنجة مدينة - دولة. الأمر صحيح بالنسبة لمدن مثل سبارتا والبندقية وجنوة وربما هامبورغ، لسبب واحد: كُنَّ ذات سيادة، ثم ذاتَ استقلال، أمر لم يحصل مع طنجة في تلك الحقبة. التميُّز الأساسي هو التميز الذي كان بين السيادة / الاستقلال والإدارة. احتفظ المغرب بالسيادة كما رأينا عند الاستقلال، الذي لم يجادل فيه أحد، مع الخليفة كرمز ودرع، وتخلَّصت القوى الاستعمارية من إدارتها، صحيح أنها وسعت المدينة، لكن ذلك لم يتحول إلى سلطة سيادية. من خلال هذا الحقل التعبدي للإسبان، لإعادة خلق الفردوس مع أقصى درجات اللطف، يمكن أن نتجرَّأ ونقول إن طنجة ملك للجميع وليست لأحد. لم تكن ملكا للجميع، على الرغم من أنها بهذه الطريقة محظورة على الأقلية الإسبانية ذات الأغلبية (إذا كانت للجميع، ستكون بفعل القوة للبعض أكثر من غيرهم)، ولم تكن ملك أحد أيضا لأنها مغربية. إن أسطورة طنجة تتسامى للغايَة. طنجة قبل كل شيء عبادة شبه دينية، توسع عاطفي غير مسبوق وقوي.

كيف تقيِّمون عامة أهمية طنجة من خلال الأدب والسينما والإعلام الإسباني؟

ليس لدي ما أقوله في هذا الصَّدد.

أصدرتم مؤخرا كتابكم «النقض المتعاقب: السياسة الإسبانية ما بعد الاستعمار مع المغرب؟» ما هي الفكرة العامة للكتاب؟

لحسن الحظ الاستعمار لم يعد سائدا، لكن بعض السلوكيات الفردية والمتكررة والوحيدة، تُشنُّ بهوية صارمة للأشخاص، دون موضوع وسبب، لا يمكن أن تكون إلا اشتقاقات وتسام ونقائص غير واعية، وبقايا عاطفية من زمن وجود الاستعمار. هناك إجابات بالكاد تقبَل تفسيرات مختلفة.

تعد السلوكيات الفردية للمديرين والمسؤولين أكثر ملاءمة لتحديد العقليات والأحكام المسبقة والمشاعر الخفية للمؤسسات التي يعملون بها. وتظهر ميولات واتجاهات يمكن تتبعها إلى أن يتم تفسيرها. تمَّ تقديم مواقف متطابقة ومهمة في مؤسسة البيت العربي ومعهد سرفانتس في فاس والبيت الأفريقي ومؤسسة الثقافات الثلاث ومعهد خوان رامون خيمينيز في الدار البيضاء.

هوامش:

-1 من مواليد طنجة 1978، خريج مدرسة طليطلة للمترجمين، حاصل على الدكتوراه من جامعة مدريد المستقلة ويعيش في غرناطة. و هو مترجم وصحفي اشتغل مع عدة وسائل إعلام مرئية ومسموعة ومكتوبة في المغرب وإسبانيا وأمريكا اللاتينية.

-2 مترجم مقيم بين المغرب وإسبانيا، صدرت له مجموعة قصصية مترجمة «الشاب الذي صعِد إلى السماء: مختارات قصصية من أمريك اللاتينية».

المصدر:

https://www.estrechonews.com/al-minuto/jose-maria-lizundia-es-muy-exaltada-esta-mitificacion-de-

في الفُلك الحديدي

أحمد القاسمي

كرقاص ساعة حائطية يميل بهم المكان الأجوف؛ من جراء هذا الميلان أصابهم الدوار.. دوار من يركب البحر لأول مرة، فأحسوا بألم في رؤوسهم؛ تكاد تتصدع به جماجمهم؛ تنفلق من فرط هدير مستمر منذ زمن دون توقف، والأمواج الصاخبة تضرب.. ضربة بعد أخرى على صفائح الهيكل الحديدي، فتنتفض أجسادهم؛ تنهلع قلوبهم؛ تهد أقفاص صدورهم، فخيل إليهم أنها ستنفك؛ ستتدحرج إلى أسفل عظامها.. عظمة.. عظمة، وهم يحسون دحرجتها، ولا يعاينونها لأن المكان مظلم، فيتناول كل واحد منهم عظامه، ويتحسسها، ولا يجد العجب طريقه إليهم لأنهم..لأنهم يموتون.

ليل دائم؛ لا يشاهدون نور الشمس، ولا ضياء القمر، لأن غطاء الفلك الحديدي أحكم غلقه بطريقة أوتوماتيكية، فلا تُتاح لهم رؤية عقربي، وأرقام ساعة المعصم، ولا يستطيعون عد لا الدقائق، ولا الساعات، ولا الأيام؛ لا يشعرون باختلافات في حالة الجو؛ وبرودة الحديد الغالبة..قاسية.. مستديمة؛ تأكل مؤخراتهم.

تهالكت أجسادهم في استخذاء؛ واهنة؛ يُصدرون أنيناً وآهات؛ يلتحفون الحديد، ويتكئون برؤوسهم على براميل كوسائد من حديد؛ تحيط بهم جوانب من الحديد الصلب؛ أين يمدد أحدهم رجليه يصطدم بالحديد.. سجناء زنزانة من حديد.

في بيئتهم ضوضاء لتروس وأسطوانات لآلات حديدية؛ في حركة دائرية سريعة بدون عطب، وفي أجوائهم غلالة من بخار أجسادهم؛ تتكاثف وتحتك بالحديد البارد، فتَمطر ندى؛ تتساقط قطراته بطيئة على أيديهم فيتلمظونها؛ يشربون عرقهم؛ يبللون بها جدارات حناجرهم الجافة؛ هواؤهم مشبع برائحة احتراق وقود السفينة، والبول، والبراز.

في ليلة غاب فيها القمر، يحجبه غطاء كثيف معتم من السحب الثقيلة، وأضواء الأعمدة الكهربائية في شوارع وأزقة المدينة باهتة؛ تحيط بها سحابة من ضباب خفيف؛ تسللوا إلى بطن الحوت الحديدي الرابض برصيف المرفأ الكبير؛ مخترقين الحواجز، وما سطرته المدنية من قوانين البحار والمحيطات، وفي غفلة من رجال الجمارك، وأفراد الطاقم، فحشروا أنفسهم بين براميل يجهلون إطلاقا ما تحتويه.

حيث لاذ ثلاثتهم؛ يأكلون، وينامون، ويتبولون، ويتغوطون.

سفينة رست في الهزيع المتأخر من الليل؛ لم تلفظ ما بحوزتها كما هي عادة السفن، كما لم تشحن بضاعة؛ تزودت بالوقود، وراحت تمخر عباب البحر، فبعد ميلين أو ثلاثة أميال بحرية؛ بعد صمت تام تململ (محمد) بجذعه، وبحذر شديد؛ فيه بقية خوف، وحيرة؛ شاهد بأم عينيه، والآخرين كيف انطبق الحديد بالحديد، ووجه السماء يضيق، وضوء الشمس ينسحب بمهل أمام زحف ظلال الحديد؛ دنا من (علي) وهمس في أذنه:

- لا أعرف في أي اتجاه من الاتجاهات الأربعة تسلك طريقها هذه السفينة؟

فكر علي؛ استرجع صورة السفينة لحظة ولوجها؛ كانت في لون الرماد، فلم يستبعد كونها إحدى تركات الحرب الكونية الثانية، فابتسم؛ واستهزأت بواطنه؛ ألا تكون قد بُعثت فجأة وهي في إحدى غاراتها الحربية؟ ضحك:

- وما أدراني.. فقد تبحر شمال خط الاستواء أو جنوبه.

تلفت (مصطفى) في الظلام إلى (علي):

- غايتنا نحن أن تُبحر شمالا، أما الجنوب فليس أحسن حالا منا.

ربّت (محمد) بيده (علي):

- إننا ننقاد فعلا برغم أنوفنا.

قال (علي):

- حتى ونحن على أرض الآباء والأجداد؛ لم نكن نحيا حسب اختياراتنا.

همز (مصطفى) قدمي صاحبيه:

- أرجوكما تكلما بهدوء، أو الزما السكوت، فقد تتسرب أصواتكما إلى الآذان.

قال (محمد):

- إننا في خوف عارم.

- قال (علي):

- أهو زمن الخوف؟.. الخوف من الفقر؛ من الجوع؛ من أزمة مالية قد تعصف بقطب الرأسمالية.

قال (مصطفى):

- إننا نخاف حتى من طفل يولد؛ إن أنصار (المالتوسية) الآن أكثر شؤما من أي زمان آخر.

قال (علي):

- أخال أن يكون مكان الشحن هذا مرتعاً لآلات الرصد والتصنت.

قاطعه (محمد):

- إذا ما ضُبطنا سنتهم بالإرهاب، وستُنقل المادة الخام للحدث عبر الشبكة العنكبوتية، وستحرر صُحفهم وصحفنا خبراً بمثل هذا الكلام:

«فشلت الليلة البارحة محاولة نسف سفينة شحن أمريكية تكون، أو فرنسية، أو ألمانية أو انجليزية؛ من طرف ثلاثة شبان ينتمون إلى المنطقة العربية، تسللوا إليها ليلا من مرفأ المدينة، وهم قيد الحجز لدى سلطات خفر السواحل».

تقلب (مصطفى) على جنبيه؛ تقلب مرة ومرتين؛ عشرات المرات حتى كل، وقرفص (علي)، وانكفأ حتى تقوس ظهره، يرفع ذراعيه عاليا مُتمططا، فيحس بألم في ضلوعه، وانبطح (محمد) على بطنه يتضور جوعا؛ يلعق فتات (بيسكوت)؛ يشعر بوخزات في لثة أسنانه؛ داهمته رائحة كريهة، فتقيأ الفتات والدم، ونادى بصوت من داهمه وباء:

- بُراز من هذا العالق بكفي؛ برازك أنت يا (علي)؛ ما أخبثك؛ ارمه بعيدا.

تأوه (علي):

- تقول هذا، وكأني في حال أحسد عليه؛ بولك تسرب إلى ملابسي، وإلى حافظ الكتان؛ شهادتي الجامعية المترجمة أصبحت خرقة بالية ببولك.

قال (محمد) بيأس بالغ:

- طالت الرحلة؛ لا أظن أن بحر (المانش)، أو بحر (البلطيق) بعيدان بهذا القدر، وإن كنا في حقيقة الأمر لا نعرف كم من الأيام ونحن نهاجر في جوف هذا الفلك الحديدي.

انتفض (علي) فجأة:

- أرضنا الأم الحبيبة إلى القلب؛ دافئة؛ نداها ينعش؛ سخية؛ عطاؤها كثير إذا أنت حننتها إليك، لكن قطع الله دابر من...

ما فتئوا جميعا يمسحون دموعاً اغرورقت بها عيونهم؛ لم يسبق لهم أن بكوا، فالرجال لا يبكون؛ بكوا لشعورهم بمدى الخيبة المرة؛ نفضوا مخيلاتهم من الأمل، والتطلع إلى أرض تشرق فيها تباشير صباح كانت تصبو إليه نفوسهم.

مر زمن..ساعة..؟ ساعتان..؟ يوم..؟ أسبوع..؟

لا أحد منهم يعلم؛ خيم السكون؛ أجساد هادئة أصابها الوهن.

تجتاح (محمد) ذكرى أيام خلت؛ يوم تأبط كتبه ودفاتره، واتجه لأول مرة، وبحيوية ونشاط لا نظير لهما صوب مدرج الكلية؛ ليحضر أول محاضرة من برنامج السنة الأولى؛ في مادة الجغرافية الطبيعية؛ منذ ذلك الحين وهو يكد ويجد؛ مذكرا نفسه دائما قائلا: «المثابرة صفة الطالب المثقف والمتزن»؛ يتفوه بمثل هذا الكلام كلما أحس بالخمول يدب إلى عقله وجسده، ذهب مرة إلى خزانة الكتب؛ حرر الورقة بعنوان الكتاب؛ دفع إليه أحد أعوان الخزانة بالكتاب المطلوب، وقال متهكما:

- ماذا ستعمل بعد حصولك على الإجازة بجغرافيتك؟ أستُحول مجرى (النيل) إلى أراضي الساحل الجدبة، أو مجرى (المسيسبي) إلى صحراء (نيفادا)، أو نهر (الأمازون) إلى صحراء (أطاكاما) بالشيلي، أم ستغير خريطة العالم وفق طموحات الشعوب والقوميات.

نظر إليه بانكسار، وقال:

- ندرس الجغرافية لأنها علم كباقي العلوم الإنسانية؛ علم وضعه الأوائل، وطوره المتأخرون؛ على ضوئه نفهم الواقع، ونفسره، و..و..

ضحك عون خزانة الكتب الإداري، ومضى يختال.

دس هو برأسه بين طيات الكتاب، وعكف يقرأ بهدف التحصيل.

كأنه سمع صوتا؛ أو حركة؛ فأصاخ لهما السمع جيدا؛ إنها وقع خطوات تثير ضجة على درجات سلم حديدي؛ يتردد صداها في أرجاء المكان؛ فتسمر في مكانه.

يظهر رجلان تحت ضوء مصباح يدوي مُسلط على البراميل؛ رآهما يرتديان ألبسة فضفاضة في لون الفضة أو الألمنيوم، تغطي جسديهما تماما من قمة رأسيهما إلى أخمص أقدامهما، وكمامات على أنوفهما وأفواههما.

- ألبسة واقية..؟ قال بانبهار.

سمع الرجلين ينطقان باللغة الانجليزية، ودار حوار فهمه، فسرعان ما قيد الخرس لسانه؛ كاد أن يغمى عليه؛ تماسك قليلا؛ حرك بيديه وبحركة خاطفة جسدي (علي) و(مصطفى)؛ لكن وجد حركاتهما قد سكنت؛ إلا من أنفاس خافتة تصعد وتهبط.

حدث نفسه يُسائلها بإلحاح، وفي حيرة بالغة:

«قالا جزيرة..؟ جزيرة (القديسة هيلانة)..؟ ما أعلمه أن هذه الجزيرة توجد في مياه المحيط الأطلنتي؛ إلى الغرب من ساحل إفريقيا الجنوبية قبالة (أنكولا)؛ إذن فهذه السفينة الشبح لم تكن تتجه صوب مراسي أوروبا كما كنا نأمل، وكما كنا نريد أن نهتدي هناك إلى مكان سري ننفذ منه إلى الداخل من أجل العمل والكسب، والبرآميل..؟ قالا..ويا للخسارة؛ إنهم سيُغرقونها في اليمّ هنا في الجنوب لأنها مليئة بالنفاية النووية».

وتهاوى بهدوء.

من أعمال الرسام المغربي ماحي بينبين

من الذاكرة

من أعمال الرسام الباكستاني البريطاني جميل نقش

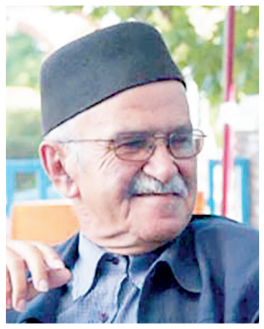

عبد الكريم الطبال

1

سُلمٌ
أنت تهبط منه
وهو يقول
وفي صوته رنَّة الهزءِ
أنا جئت إليك
لِتعرجْ

2

كتاب في يدي
مملكةٌ
مكتظةٌ بالورد
والجداول
والطير والحدائق
ولا سياج
والبيادر
ولا فزاعة

3

أحيانا
يضحك وجهي
دون إذني
أسأله
لِمَ تضحك؟
يضحك ثانية
فأكف
وأمشي

4

الوردة
التي لا تذبل
هي القصيدة
التي لم تكتبْ

5

هذا العالم
كم يكذب
تحت الشمس
عزف اليعسوب

سبحانك ربي
عزفُ اليعسوبِ
قصيدٌ يُلقيهِ
على الوردةِ
في مجلسها الملكيّ
فتُجزيهِ
بكأس يشربها
حتى يثملَ
قد تُجْزِلُ في الجودِ
بوصلٍ سريٍّ
تُخفيه عن العُذَّالْ
تباركتَ
علَّمتَ العشقَ
لأهل الوصلِ
كما علمت العذل
لأهل الهجرْ

أحياء

تبكي غرناطة
على قبر لوركا
يبكي ديجور
على قبر السياب
يبكي أغمات
على قبر ابن
عباد
يبكي العشبُ
على قبر
ويتمان
تبكي الموسيقى
على قبر زرياب
يبكي أنوال
على قبر الخطابي
تبكي تطوان
على قبر الصباغ
تبكي طنجة
على قبر الطريبق
تبكي الشاون
على قبر محمد الميموني
تبكي وجدة
على قبر بنعمارة

لا
تذرفوا
الدمع
عليهم
إنهم أحياءْ

ضحكات

ضحكتْ تفاحةٌ
على حواءْ
برمش الطرفْ
ضحكت شهرزاد
على شهريار
بالثرثرةْ
ضحكتْ اعتمادْ
على ابن عمارْ
بشطر بيت
ضحكتْ
أفعى
على جلجامش
بلحْس عشبةْ
وضحكنا
كلنا
علينا
بحلم بعيدْ

الشرفة

الشرفة
دوماً أعلى
منها نشهدُ
أخطاء الأشجار
التي رضختْ للريحْ
منها تشهدُ
ظلكَ
يمشي في الشارعِ
دونكْ
منها تشهدُ
فيك كوابيسكَ
تحت الليلْ
نحن في الشرفةِ
نحن على الأسفلتِ
ولكنا
لا ندري
من نحنْ

دهشات العشق

إلى محمد الصباغ في الذكرى العاشرة للرحيل(1)

رضوان احدادو

اعطني الناي وغني
فالغنا سر الخلود
فأنين الناي يبقى
بعد أن يفنى الوجود

منك، نعم، منك يا جبران أصابه السحر، وأدركته حرفة الشدو والغناء، ليسكبها علينا عبيرا ملتهبا ولهاثا جريحا، مواصلا سهراته إلى اللحظة والهنا وإلى ما بعد، راسخا ثابتا مزكي الحضور.

لن تهجر الأنجم الساطعات يوما سماء مدينتنا، ولا الخرير سواقينا وأوديتنا.

لن تهجر النوارس لحظة خشاش البحر وأعشاش أصداف الشواطئ الحالمة بالموج المستريح، ستظل أبدا حافية، رابضة، متربصة ميلاد موجة حالمة قادمة من منتهى الأفق.

غدا صباحا، أو بعد غد، حتما ستتفتق أكمام الزهر المغتصب من مزهريات جدتي وحدائق مدينتي، ويعود بعدها الأريج المضواع إلى ساحة (الفدان)، ويعود هديل الحمام المُهَجَّر إلى القبة الزاهية الخضراء.

لن يحجب الغياب لألأة العبارات وأسرار البوح والكلمات، ستظل أبدا أبوابنا السبعة المخضبة بالجوهر المكنون مشرعة، كل النوافذ مشرعة في وجه الضوء ومتواليات عباراتك المجنحات الشامخات العابرات الحالمات.

عاجز هو الغياب عن تغييبك، عن إخفاء مواكب عطاءاتك، غزواتك وفتوحاتك فأعلن إفلاسه المبكر، لتظل، أبدا، أنت فينا وبيننا قمرا وشلالا، فوارة ظمأ، شجرا من نور ومحار، لهاة جرحه يتنامى.

اليوم أيها العزيز يحلو لي أن أستحضرك وجها زاهدا خفيا محتشما، خارج مدارات الشدو وتلاوين الحبر ونعومة الكلمات ورشاقة الحروف المخملية الناعمة.

يحلو لي أن أستحضر معك شيئا من اخضرار الأيام التي مرت بيننا ومزهريات الحوادث والأحداث وارتعاشات الدهشات:

ميلاد الدهشة الأولى

كان ذلك قبل أن يَخْضَرَّ بيننا الزمن وينضج، أذكر جيدا، كان ميلادا سلسلا، ولادة بلا وجع، بلا انتظار ولا استئذان، العود وقتها في نعومة رطبه، وفتوة لينه، لم يشتد بعد، غض طري، والعمر وقتها في حبوه الأول يقاس بالدبدبات لا يعلو عن عمر تلميذ خطواته نحو مهابة الحرف وجلاله لا زالت مرتبكة متعثرة وجلة، والسمع وقتها كل مساء جمعة مشدود في ابتهال ونشوة إلى الأثير (هنا راديو درسة تطوان) يغيب الصوت، تحضر الموسيقى، يحضر الصوت (البديع، مجلة راديوفونية للشعر والموسيقى).

البديع، ترى من يتذكر؟ كتاب منشور، مفتوح مسموع، أول من نقر أسماعنا وفتح أعيننا الصغيرة على (نبي) جبران و(خمائل) إيليا و(زاد) نعيمة، وأغاني الشابي، وأرشدنا إلى الغدير الماتع ملحمة بولس سلامة وباقي منارات الشرق والمهجر.

ضيف هذه الحلقة الأديب محمد الصباغ.

هو الميلاد المحتشم قد أعلن عن نفسه.

الدهشة الثانية

تواصل الدهشة دهشتها، تقودني الخطوات المتعثرة مشدوها، مشدودا ومجرورا إلى مفاتن مساءات شارع (الجنرال فرانكو)، وقتها يتحول المكان كل مساء إلى فضاء رحب هو للفتنة والعطر والدلال والغنج.

المكان مهرجان أناقات متعددة، عند مدخليه شرطيان إسبانيان لا يسمحان بالمرور، لا يسمحان بالعبور، لا يسمحان بالجلوس، لا يسمحان بالاقتراب إلا للأنيقين، ومن بين كل تلك المفاتن تطالعك طلعته، عطره وأناقته، أقتفي خطوات العطر المضواع، وجود هو الآن خارج الأثير، أتمعن: جسد نحيف، شارب دقيق، معطف وبري جذاب، عن يمينه الشاعرة الرائعة تيرينا ميركادير والأديب الكبير الشاعر خاسينطو لويس كورخي.

مشهد لن يتكرر إلا في مساءات هذا الشارع وذاك الزمن الذي مات بموت أصحابه.

الدهشة الثالثة

عن ميلاد اتحاد كتاب المغرب أحكي.

تحدثنا دفاترنا الصغيرة المهملة المنسية، المزهوة النبرات والمزدهرة سطورها بسبائك التاريخ عن أولى إشراقات الابتهاج في ماضينا الأدبي المعرفي المهجَّر والمغيَّب أن ميلاد فكرة تنضيد الحروف والكلمات وتوحيد صفها وجمع أصواتها ولم شتاتها وموسقة نغماتها انطلقت تباشيرها الأولى في زمن مبكر تحت يافطة (عصبة القلم) من مرابع (درسة وغرغيز) هكذا أخبرتنا الدفاتر، وأخبرنا هديل الحمام، وأن الصادح الأول على مئذنة الوطن كان هو المرحوم عبد الخالق الطريس وقد شهد على هذا القول قاضي المدينة وحارس أبوابها وأقواسها وموثق أفراحها وأحزانها المرحوم محمد داود، وأثبته في السفر السابع من كناشه العدلي الموسوم بـ (السلام)2 وختم عليه بتاريخ أبريل 1934م.

هكذا أطلعتنا دفاترنا وأخبرنا الحمام والعهدة على القاضي، وقالت أيضا:

وبعد ربع قرن وعام وشهر على توقيع هذه الشهادة الموثقة عند قاضي المدينة وعقدين ونيف من حديث الشيخ تتجدد في نفس الربوع الدعوة، كان صاحبها هذه المرة شاب مسكون بالأريج والنغم معتق بالبياض يسير مقتفيا خطوات شيخه جبران ورواد الكلمة الموحية الساحرة المشدودة ببراءة الأحلام يدعى قيد حياته المادية محمد

الصباغ3.
أقفل الدفاتر وأروي لكم كشاهد عيان:
أوائل شهر ماي 1960 وفي نشوة انبهارنا بالمهرجان الفلسفي الباذخ الذي أقامته بتطوان جمعية (نبراس الفكر)4 تحت شعار: «فلاسفة الإسلام في الغرب العربي»، مهرجان الثراء الفكري الفلسفي الأدبي المزدان بحضور حملة القلم من المغرب والمشرق العربيين، برزت الفكرة من جديد ناعمة، مخضوضرة، مزركشة، موشاة بأطييب الأحاسيس، مدونة بفرشاة هذا الصباغ، فكان بحق أول من شق التربة بالفأس، وأول من حمل الحجر لإقامة الصرح رفقة محمد عزيز لحبابي ومحمد بن تاويت التطواني، وباسم هذه اللجينة تم تحرير شهادة ميلاد (اتحاد كتاب المغرب العربي)5، وكان ذلك بتاريخ 17 ماي 1960، ومما ورد فيها: «تنهي (اللجنة) لسائر الأدباء المغاربة والجزائريين والتونسيين أنها قررت أن يكون مركز الأمانة العامة لها بتطوان بصفة مؤقتة (...) وترجو من جميع الأدباء المغاربة والجزائريين والليبيين والتونسيين الذين يرغبون في الانتماء إلى هذا الاتحاد أن يكتبوا برغبتهم مع نبذة عن حياتهم الأدبية وعنوانهم إلى الأمانة العامة باسم كاتبها العام محمد الصباغ، باب السعيدة تطوان».
لأمر ما يتم طمس هذا الدور!

الدهشة الرابعة

قريبا منه، وأيضا بعيدا عنه، هكذا كنت أجد نفسي على امتداد سنوات الهوى الصباغي، كلما أسرعت الخطو وشعرت بالدنو كلما ابتعدت وتباعدت المسافات، مبلغ حدود النشوة كان عندي الاكتفاء ببوحه على صفحات (الأنيس) وغيرها من الورقيات المورقات الهفهافات.
في صباح يوم صيفي قائظ من أيام غشت 1957 وكنا عصبة صغيرة، ثلاثة تلاميذ لا أكثر عمرهم الأولى إعدادي، رحم الله الفقيدين العزيزين محمد المنتصر الريسوني وحسن الوراكلي تغمرنا فرحة الأفراح ونحن على عتبة إصدار العدد الأول لمجلة (النصر) في زينتها الجديدة (مطبعيا) بعد سنتين من صدورها الخطي.
في ذلك الصباح الصبوح، أمطرت السماء في غير موعدها، زخات ألوان وأنغام وأصباغ، الصباغ يدعم أحلام الشباب بموضوع وسمه بـ (قبل أن ينضج الزمن).
أستحضر معكم قوله: «حبات من هواء ينقسم ويتناثر على شعاف الشمس، وعرق الليالي يتطيب حافيا على سواد القمر العاري»
وتتوالى الزخات.

الدهشة الخامسة

بين الرباط وتطوان تتوالى الأيام، نكبر معها، نزيح مسافات الغربة، ينتقل الصباغ إلى رباط الفتح رابطا فاتحا، وأظل في المدينة التي سكنتني قبل أن أسكنها، ولكن حبل الود والمودة ظل ممدودا موصولا، ففي سنة 1970 رفع سبابته مطالبا بدم الكلمة وطالبا (نقطة نظام)، أذكر أنني تجاوبت مع الطلب، وكتبت عن جمالية النقطة الصباغية بمجلة (الآداب البيروتية)، تلقف الصباغ حروفي الهشة الواهنة، وبث فيها الدفء وأعاد نشرها بالملحق الثقافي لجريدة (العلم).
أوائل ثمانينيات القرن الماضي على عهد وزير الثقافة الدكتور سعيد بلبشير كان الصباغ قطب ديوانه قد اقترحني مندوبا لوزارة الثقافة على مستوى الجهة الشمالية، وعبر لي عن أسفه الشديد لرفضي التعيين.

وبعد
هل قال الصباغ كلمته؟
السؤال سيظل منتصبا مصلوبا في وجه الرياح الأربع.
رحل والحروف لازالت في طراوتها ويناعة يناعتها تنتظر لحظة الانعتاق، تتوالد الحروف من رحم الحروف.. شلال عطاء وسخاء لا ينضب معينه، ترى من منا القادر على الاستغوار وبعث الدفء والحياة ؟
خلف من ضمن ما خلف - حسب علمي - أربعة أبناء شرعيين بارين لم يمهله المرض ليرى فرحة تسجيلهم بدفتر الحالة المدنية وهم:
سنابل الأصيل.
جمرة العطر.
اللائيون ويحترق البحر.
أهل مدينتي الفاضلة.
والأخير استودعني إياه الصديق المرحوم محمد العربي المساري قصد إعداد تقديم له قبل نثر عطره ونشره، ولكن تجري الرياح بلا ما لا تشتهي السفن، ليبقى مشروعا معلقا على أشجاب الذاكرة وأبقى كل صباح متعهدا حروفه في انتظار الذي يأتي أو لا يأتي.

مارس 2023

من أعمال التشكيلي الإنجليزي السوريالي «جوناثان ولستنهولمي»، المهووس بالإشتغال على الكتب القديمة.

هوامش:

1- قدمت هذه الورقة في الحفل الذي أقامته بتطوان كل من جمعية (قدماء المعهد الحر) و(اتحاد كاتبات وكتاب الشمال) بتاريخ الخميس 16 مارس 2023 إحياء للذكرى العاشرة لرحيل الأديب محمد الصباغ.

2 - أول مجلة وطنية صدرت بشمال المغرب على عهد الحماية للمرحوم محمد داود بتاريخ أكتوبر 1933م، صدر منها عشرة أعداد وتوقفت عن الصدور في نوفمبر 1934م.

3 - بوقاره الوقور، وفي لحظة الجدب والبوح الصوفي يحكي لنا شيخ (الزاوية) عن ميلاد أول مجمع أفراح وعرس أقلام أقيم يوما ببلادنا، يحكي عن عصبة الفكر المغربي:
«تضم هذه المؤسسة الجديدة، التي تكونت منذ عهد قريب نخبة من رجالات هذه المنطقة ومفكريها وشبابها النابغ، وهي مؤسسة علمية خالصة يعمل أعضاؤها لتكميل نواحي النقص فيهم بالبحث والاطلاع والمناقشة، وسوف لا تقتصر فائدتها على أعضائها، بل ستشرك بين حين وحين جمهورنا المتعطش إلى المعرفة.
وعما قريب ستفاجئ البلاد بفتوحات ثقافية سيكون لها بحول الله قوي الصدى وخير الأثر.
والمجد والسمو للمغرب» (جريدة الريف عدد 174، ص: 3، 21 فبراير 1939م / 1 محرم 1358هـ) والعهدة عليهم.

4 - جمعية رائدة رئيسها المرحوم أحمد بلقات، وكانت تصدر بانتظام مجلة (النبراس).

5 - بعد سنتين أصبح (اتحاد كتاب المغرب) وهو الاسم الذي لازمه.

سردية المدينة: من المكان إلى الفضاء

مدخل إلى المجموعة القصصية «لا طمأنينة في مدينتي» لعبد الحميد الغرباوي

الحسين والمداني

تعيد المجموعة القصصية «لا طمأنينة في مدينتي» لعبد الحميد الغرباوي، والصادرة عن منشورات باب الحكمة بتطوان، السجال النقدي حول المكان والفضاء، والذي عمّقت اضطرابَه الترجمة العربية الشهيرة لكتاب باشلار (La poètique de l'espace)، التي أنجزها غالب هلسا: (جماليات المكان)، لدرجة أن حسن نجمي اعتبرها «جناية من ذلك النوع الذي يمكن أن نسميه بالجريمة الرفيعة في حق الحقل النقدي والأدبي العربي، ومات (غالب هلسا) ولاتزال ذيول الجناية حية متواصلة».

ولننطلق من كون الفضاء يتجاوز الإطار المادي الهندسي والبصري، ليغدو عنصرا دامجا لكل مكونات العمل السردي، إنه مضمر، غير مرئي، وغير موصوف، لكن يمكن تلمسه في اللغة والأمكنة والحوارات والشخصيات والطباعة.... وغيرها، أنه – بتعبير بيير هربرت- «عنصر بنينة»، ومن ثمة فإن الفضاء ليس مجموعة الأمكنة وعلاقاتها اولوسط والحيز والديكور ...، بحيث إن حضور أمكنة المدينة -مثلا- لا يفضي بالضرورة إلى الفضاء المديني في العمل السردي، ذلك أن الفضاء يشترط علاقات أخرى بين الشخصيات وحواراتها واللغات وتوزيع المشاهد وإيقاعاتها بما يؤول إلى منح النص روح المدينة التي ينبغي وضع القارئ في فضائها.

وتقدّم المجموعة القصصية (لا طمأنينة في مدينتي) مادة تتيح تتبّع مستويات الاشتغال على فضاء المدينة لكونها تزخر بأمكنتها ومرافقها ومجالها.

الطمأنينة والمكان

في محاضرة قدّمها هايدغر، ضمن حوار (دارمشتات) حول «الإنسان والمكان»، وترجمها إلى العربية إسماعيل مشتات، ونشرها في (كتابات أساسية)، سنة -2003 فصل فيها هايدغر بين البناء والسكن وتتبّع علاقتهما بالتفكير، من خلال الجذور اللغوية الألمانية، وخلص إلى الربط بين السكن والإقامة والأمان والخصوبة...، وهي علاقات لا يندرج ضمنها البناء.

وعلى النحو ذاته الذي اعتمده هيدغر، إذا انطلقنا من الجذور اللغوية العربية، فإننا نسجّل تقاطعات كثيرة مع الأصول اللغوية للفظتيْ (السكن) و(المكان). فإذا كانت الكلمة الألمانية BAUEN التي تعني السكن ، تنطوي على دلالات أخرى هي: (الكينونة، زرع الحقل، رعايته، الإقامة، البناء...) فإننا لا نخرج عن الدائرة نفسها في اللفظ العربي.

فابن منظور في لسان العرب يصل «السكن» ب «المكان» أي بالإقامة، ثمّ يورد كلمة (مكان) في موضعين بجذرين مختلفين، فهي مرّة من (كَوَنَ) ، ومرة أخرى من (مَكَنَ) ، ثم يسردُ جزءاً من السجال اللغوي حول هذا الأصل، ومنه قول الليث: «المكان اشتقاقه من كان يكون، ولكنه لما كثر في الكلام صارت الميم كأنها أصلية». ومن هنا فالمكان – الذي هو أصل السكن- ينطوي على الكينونة. كما يضيف «والسكن المرأة لأنه يسكن إليها»، ومنه قوله تعالى: (وَمِنْ ءَايَٰتِه أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا).

وَاستنادا إلى هذا فإن ربط هيدغر كلمة السكن BAUEN بزرع الحقل، يجد أيضا مقابلا له في الثقافة العربية، فالمرأة سكن، وهي أيضا توازي الحقل، (نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ).

على أن كلمة FRIEDE التي تتصل في اللغة الألمانية بالإقامة وتعني أيضا الأمان والحماية، نجدها في التعبير العربي المتعلّق بالمرأة المتزوجة التي بُني بها وصارت سكنا، فهي تغدو مصونة ومُحصنة.

وإذا كان هايدغر قد ربط السكن بحفظ ماهية الشيء وتركه على طبيعته، فإننا نجد تصاديا لهذا الاستعمال اللغوي في العربية أيضا باعتبار المسكن حماية وتحصينا، ليس عند الإنسان فقط بل عند الهوام أيضا. ففي القرآن:

(قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

أي أن السكن هنا هو حماية للنمل من التغيّر الذي يمثّله التحطيم.

وتبعا لذلك، فإن الدلالات العميقة التي تتبّعها هيدغر في الجذور اللغوية لألفاظ السكن والمكان، نجدها تتقاطع مع الدلالات التي تمنحها إياها اللغة العربية، كما لو أن الثقافتين اللغويتين تلتقيان في أن السكن يحمل دلالة الكينونة والزرع، والرعاية والإقامة، والأمان/ التحصين. فالمكان يتيح البناء، والبناء –إذا توافرت فيه شروط وعوامل معينة- يغدو سكنا واطمئنانا.

الطمأنينة والمدينة

ارتبطت نشأة المدن بالإقامة وبالاستقرار، وبالحماية التي توفرها الجماعة وتنظيمها، وكلها عوامل تفضي إلى الأمن والتحصين والطمأنينية، وما يتولّد عنها من الرفاهية والتقدير. غير أن الفجوة الحاصلة بين منحى البناء والتعمير من جهة، وسبل تحقيق السّكن والسكينة، جعل المدينة بعماراتها ومبانيها ومنشآتها تغدو «مجرّد تكويمات عشوائية راكمها الإنسان في المكان»، حتى غدت المدينة «أدغالا حجرية نعيش داخلها»، فنتجت عنها أحاسيس الضيق وعدم الارتياح والقلق والتيه والإضطراب...، وصارت منشآتها وخدماتها تنتج التوتر وتُفزع أكثر مما تتيح الأمان والاطمئنان، وهو ما تشتغل عليه فنيا مجموعة «لا طمأنينة في مدينتي»، فتبني فضاء قلقا، مضغوطا، وسريعا، تنخرط فيه الشخصيات واللغة والبناء والتوزيع البصري للصفحات والأحداث...، فضلا عن ما يوفره المعجم المديني للأمكنة والعلاقات والخدمات والرموز وغيرها.

ويقدم السارد الركضَ مقابلا موضوعيا للقلق والتيه، حيث الجميع يركض في جميع الاتجاهات : العشاق، النشالون، المواطنون، العمال... «وقد تتقاطع الاتجاهات فيحدث جراء ذلك ما يشبه الاصطدام، ذلك المؤدي في حالات ما إلى تبادل الشتائم ونشوب عراك» (ص14). وهذا الوضع الذي آلت إليه المدينة في تحولاتها وانحرافاتها وأعطابها واختلالاتها، هو بؤرة التفكير والسؤال داخل المجموعة:

«أنا الآن أركض
إنما، لماذا أركض؟
هذا ما يحيرني وأدعوكم للتفكير فيه، لم لا؟» (ص15)

إن هذا التفكير الذي أفرزته التحولات المستمرة، هو نتاج حالات إنسانية ونفسية وذهنية لا تستوعبها الجماعات المتمدنة إلا متأخرة، تماما مثلما لم ينتبه أحد للشبح الذي يعبر الشوارع إلا حين صدمته سيارة، فبدت لحظة السقوط مشهدا مفجعا، و«لم يعد هو شبحا. جثة ممددة وسط الطريق» (ص51). فيما أن المدينة «التي كنت تفكّر أو تحلم بإنقاذها، لا تنفك تتغيّر، تتسع، وستظل تتغير، وأنت تتقدّم وتتوغل في العمر» (ص69)، وها هي بلغت نقطة صارت عبئا لا رفاهية فيه ولا أمان ولا طمأنينة ولا سكن ولا تحصين للذات والنفس والعلاقات...، وهو شأن لا يتعلق بمنطقة ما في العالم دون غيرها، ولكن يقع شيء من هذا القبيل في كل المدن: العالم يحترق (ص 94).

وسواء أكانت المدن قد نشأت بدافع الحماية، معسكرات تحوّلت إلى تجمعات مهيأة كما هو الحال بالفسطاط والكوفة وغيرهما، أم لتنظيم العلاقات الداخلية وتوزيعها بين الأفراد في الري والأعمال الحياتية، فإن مركز تشكّلها لا يخرج عن محور الرفاهية والطمأنينة. وما تزال المدن القديمة وأحيائها الأولى تشهد تناغم العمران والإنسان في احتياجاته وعاداته وقيمه؛ بيد أن ما آلت إليه المدن يفضي إلى اغتراب الفرد في محيطه، وعدم الشعور بالراحة في والأمان في الشوارع والأرصفة والأزقة ... في مفارقة يوظّفها السارد ويستثمرها، إذ يقول:

«وأنت على الرصيف
سر على مهل
سر بطيئا
وتخيّل الرصيف نهرا تسبح فيه أسماك ملونة
(...)
ماذا؟
أقلت :

سر بطيئا؟
بل ،
سر سريعا
الرصيف ليس مرفأ لمراكب خيالك
(...)
الرصيف ملوث بالعفن
بالبراز
بالبول والبصاق
(...)
لا طمأنينة على الرصيف
لا طمأنينة في المدينة (ص٥٧-٩٧)

تلك الطمأنينة التي أضحت مؤدّى عنها في المقاهي الراقية بالأحياء الحديثة، والتي «تبيعك الفترة الزمنية التي تقضيها في مكان هادئ (ص81).

المدينة/الفضاء والمدينة/المكان

تزخر المجموعة بأمكنة مدينية: (المقهى، الشارع، الرصيف، الشقق، الطوابق، سيارة الأجرة...)، وهي أحياز تمثل حوامل لأحداث وشخصيات ولغات، ويتم توظيفها لتأثيث الفضاء الذي يحيل على القلق والسرعة والانكسار والتيه وانعدام الأمان، فتنخرط مع باقي المشكّلات السردية في بناء فضاء المدينة.

ويتخذ المكان في النصوص السردية صيغة رمزية لأنه يُبنى باللغة وليس منظورا، فهو علامة إلى جانب باقي العلامات يؤدي وظيفة تتحقق في البناء لدلالي الشامل، أي أنه ينخرط في المعنى.

ويظهر أن المجموعة استطاعت بناء التناغم بين المكان المديني وفضاء المدينة، بما يجعل العمل مقنعا على المستوى السردي والإيهام بواقعيته، ويمكننا تصنيف اشتغالها وفق منحيين:

أ- تقديم المكان بشكل عكسي يتجه من الجزء الصغير إلى الكل الكبير، ممعنا في تقزيم الكائن وتيهه داخل مجال عملاق يحيط به:

«غرفة تشكّل مع غرفة أخرى وصالون مربّع ومطبخ وحمام شقّة صغيرة في الطابق الثاني من عمارة تقع بشارع عريض وطويل ينتهي بساحة يتوسطها دوار...»، إنها جملة طويلة عملاقة مثل مدينة تبتلع سكانها، وإلى جانبها نجد الجمل القصيرة السريعة القلقة اللاهثة.

ب- تقديم المكان معزولا، مغلقا: (سيارة الأجرة، المقهى، الشقة...)، لا تكاد الشخصيات تتفاعل فيه مع الآخر إلا داخل إطار الرفض والتوجس والريبة، والاضطراب، كما لو أنها معزولة حتى ضمن سياقاتها الاجتماعية، ومن ثمة فإن عزلة الأمكنة تنخرط في بناء العزلة الكلية لباقي المكوّنات، مما يمنح فضاء سرديا يؤطر النصوص كلها، يمنح من واقع المدينة ومآلاتها.

خلاصة

تقودنا النتائج هنا إلى سؤال العلاقة بين التخييلي والواقعي في مجموع «لا طمأنينة في مدينتي»، إذ لا تنحصر أشكال تقديم المدينة في الوصف وأسماء المدن والحدود الجغرافية واستحضار المرافق والخدمات المدينية وغيرها، إلا من باب مماثلة الواقع وقوانينه، واستمداده لمنح الأحداث والوقائع قدرة الإقناع، بل إن حضورها يتخذ أشكالا مختلفة تنسحب على الشكل والبنية والشبكة السردية، كتشظي بنية النص، وسرعة الجمل، وقلق الحوارات، وعزلة الكائنات، وتقزيم الشخصيات، وتيهها، وتباعدها... مما يجعل هاجس هذا الاشتغال، ليس نقل أمكنة المدينة ومنشآتها فحسب، ولكن نقل روح المدينة، وفكرة المدينة، وهو ما يفضي في نهاية المطاف إلى فضاء يمكن تتبع وقعه على مستويات مختلفة.

المَرايا..

محمد شاكر

مَرايا البَيتِ ، أغْرقُ في غَوْرها ؛
ولا تُنْجدُني لغتي ؛
بحِبال اسْتعارات ،
كمَا لو أنِّي بلادَليل .

مَرايا الأعْماقِ ،
تَعْكِسُني بتهْويلٍ جَليل .
ومَرَايا الذاكرة ،
تؤَرْجِحُني بَيْنَ ادِّكارٍ ونِسيان ؛
ثم تمْحو الأراجيحَ ،
وأشجارَ البُسْتان .

للبيْت ، والأعْماقِ ، والذاكرة ،
مَرايا هَذيَان ، بلَاضِفافَ .
فلاأنا .. أنَا ،
كَما في سالف الخُرافَة ؛
مُطمَئّنٌ إلى سِحْري ،
وألْوانِ الطّيْف .
ولا تَرْميمُ الشّظايا ،
يُسَوّي مِزْهريَّةَ العُمر ،
عَلى إيقاعِ ،
عِطر ،
وَزهْر .
كلُّ جهاتِ الرُّؤْيا ،
مُدجَّجَة بَانْعكاس المَرايا .
فلا حَدْسٌ ، يَفلتُ مِن زَيْغٍ ،
والْتبِاس مَتاهاتْ .
كمْ خَلطتُ بيْنَ ضوْءِ القلبِ ،
ولمْع المَرايا ؛
فما اسْتَترتُ بهَدْيه ؛
ولا نَجوْتُ من إغرَائها ،
في (كرْنفَال) الأضْواءِ الخادِعَة .

سَأُنْزلُ المَرايا ،
من عَلى حائط الرُّؤْيا ،
لَأرى سُمْكَ عَمايَ .
أَسْتَبينُ حُدودَ الوُضوح ،
وأمْشي ..
خاليًّا مِن وَساوسِ العَتماتْ .

سأكْسُر المَرايا ،
لَعَلّي أُشْفى مِن فائِض الوهْم ؛
يَطفو عَلى سَطحِها ،
ويُغريني بالغَوْصِ ،
في لجَجِ الخَيالِ .
لكنّها ، هيَ ، المَرايا ،
تعيدُ التّمَرْئي ،
حُبْلى بأشْباهي .

مكناس : 06.04.2022

لوحة فنية جدارية كبيرة بعنوان «نرسيس» للرسام والنحات الإيطالي مايكل أنجلو

في شعر المقاومة الفلسطينية 2-2

فدوى طوقان

تعد قصيدة «هنا باقون» لتوفيق زياد من أجمل وأهم ما قيل في موضوع التشبث بالأرض ورفض الانسحاب من فلسطين، وقد اكتسبت شهرة خاصة في الأنحاء العربية لما تمثله من الرفض للاحتلال والتشبث بالأرض ومقاومة المحتل وتحديه، وقد أصبحت كذلك رمزا للشاعر يُعرف به، يقول شاعرنا:

كأننا عشرون مستحيل
في اللدِّ، والرملة، والجليل
هنا... على صدوركم، باقون كالجدار
وفي حلوقكم،
كقطعة الزجاج، كالصبّار
وفي عيونكم،
زوبعة من نار.

ولاشك أن هذا الموقف الوطني الصريح شيء يدعو إلى الإكبار. ويستمر الشاعر في ثورته، وفي إصراره البطولي العنيد، الذي هو إصرار المقاومة، على البقاء في أرضه قويا وشجاعا ومتألقا، فمجرد بقائه هو في حد ذاته تحد دائم للطاغوت، وهدم لأسطورة الوجود الصهيوني المزعوم الكئيب:

هنا على صدوركم باقون، كالجدار
نجوع.. نعرى.. نتحدى
ننشدِ الأشعار
ونملأ الشوارع الغضاب بالمظاهرات
ونملأ السجون كبرياء
ونصنع الأطفال.. جيلا ثائرا.. وراء جيل.

وهنا كذلك تتجلى إرادة التصميم والمحافظة على كل ذرة من تراب الوطن، لأن الوطن هو الهوية وهو الكرامة، بل هو الإنسان في أعظم صوره وأجمل أمانيه. فتمسك الشاعر بأرضه وتعلقه بها، إنما هو تعلق بكل مقومات الإنسان التي لو تخلى عنها لافتقد إنسانيته وحقه في الوجود، ولذلك فإن الإنسان الفلسطيني يُقدم على الموت مبتسما، ويتحمل كل أنواع التعذيب راضيا، ويفجر نفسه مطيعا لإرادة الأرض والحياة، ليثبت لكل البشر إنسانيته وعدالة قضيته وحقه الضائع. لذلك آمن بأن عليه أن يبقى وأن يضرب في الأرض جذوره رغم هذه العذابات وتلك الجراح الدامية، وأن يدافع عن وجوده وبقائه بآخر ما يملك من سلاح، بأسنانه ذاتها لو استدعى الأمر، وهو ما عبّر عنه شاعرنا توفيق زياد، قائلا:

بأسناني،
سأحمي كل شبر من ثرى وطني،
بأسناني

* * * * *

ولن أرضى بديلا عنه
لو عُلقت
من شريان شرياني

* * * * *

أنا باقٍ،
أسير محبتي.. لسياج داري
للندى.. للزنبق الحاني

* * * * *

أنا باقٍ،
ولن تقوى عليّ
جميع صلباني

* * * * *

أنا باقٍ،
سأحمي كل شبر من ثرى وطني
بأسناني !!.

هكذا أصبحت ضرورة البقاء فوق ثرى الوطن هي القضية الأساسية التي ألح عليها شعراء الأرض المحتلة هذا الإلحاح الشديد المتكرر، لأنهم يدركون أهمية هذا البقاء ويؤمنون بضرورته.

ولعل توفيق زياد أكثر شعراء الأرض المحتلة توفيقا في بعث الأمل في قلوب أهله وشعبه، ليتمكنوا من الصمود في أرضهم ومقاومة الاستعمار الاستيطاني الصهيوني، لذا تجده يُنهي العديد من قصائده بنهاية سعيدة مشرقة بالتفاؤل، يبث من خلالها الأمل في النفوس:

"إنها للخلف كانت خطوة.. من أجل عشر للأمام".

« سواعدكم تحقق أجمل الأحلام تصنع أعجب العجب».

« وبما سفكتم من دم الشعب البريء ستؤخذون».

« سيعود.. رغم النار والأغلال خفاق البنود».

«في قلبي الأخضر بالآمال».

وهو ينظر إلى حركة التاريخ نظرة «نبي الأيام» العارف بحتمية التاريخ، إذ لابد للمحنة من أن تصل إلى ذروتها ثم تبدأ بالنزول إلى الحضيض، وينتهي إلى نتيجة وهي أنه لابد للباطل أن يزول:

عملاق هو هذا العصر
الباني الهدام
فليصنع ما شاء الأقزام
فالغد آت يحمل للطغيان
للعلقِ البشري، ورأس المال
الحبلَ
المجدولَ
وحكم
الإعدام !!

ولم يكن الغضب والتحدي والصمود مجرد انعكاس لأعمال المقاومة، بل الأصح أنه كان موازيا لتلك الأعمال البطولية يغذيها كما يتغذى منها.

فها هي الشاعرة فدوى طوقان تتحدى الظلم والاستبداد لتعلن عن غضبها من أجل حريتها في نشيدها الموسوم بـ «حرية الشعب»:

حريتي !
حريتي !
حريتي !
صوتٌ أرددهُ بملء فم الغضبِ
تحت الرصاص وفي اللهب
وأظلُ رغم القيد أعدو خلفها
وأظل رغم الليل أقفو خطوها
وأظل محمولاً على مدِّ الغضب
وأنا أناضل داعيا حريتي !

******

سأظل أحفر اسمها وأنا أناضل
في الأرض في الجدران في الأبواب في شُرف المنازل
في هيكل العذراء في المحراب في طرق المزارع
في كل مرتفع ومنحدر ومنعطف وشارع
في السجن في زنزانة التعذيب في عود المشانق
رغم السلاسل رغم نسف الدور رغم لظى الحرائق
سأظل أحفر اسمها حتى أراه
يمتد في وطني ويكبر
ويظل يكبر
ويظل يكبر
حتى يغطي كل شبر في ثراه
حتى أرى الحرية الحمراء تفتح كل باب
والليل يهرب والضياء يدك أعمدة الضباب.

لقد آمنت الشاعرة بالجوهر الكامن في أعماق الإنسان الفلسطيني الذي لن يقعد عن ثأره مهما كلفه الأمر، ولن يفرط في وطنه وحريته، مادام دم الحرية في عروقه يغلي بالنقمة والثأر على العدو، وعلى كل من يقف وراءه من مسانديه، لذلك حفل شعرها الوطني بتصوير صمود ونضال الشعب الفلسطيني وكفاحه ليحقق لوجوده وجودا إنسانيا

د. حسن الغُرفي

توفيق زياد

فلسطينيا.

لاشك أن هذا الغضب صورة رائعة من صور الثورة والتمرد من أجل البقاء، وهو ما أشار إليه الشاعر محمود درويش، في مرحلة مبكرة، فرأى أن الكلمة الشعرية نور متوهج يجب أن يمزق العتمة وأن يُبدد ظلام الاستبداد عندما قال من سجنه:

قصائدنا ، بلا لون

بلا طعم.. بلا صوت !

إذا لم تحمل المصباحَ من بيت إلى بيت !

لذلك فإن الشاعر يطمح إلى الإسهام بكلماته، بأن يفجر الغضب في أعماق رجال المقاومة والفداء، وأن يضع أقدامهم على بداية الطريق، بل ويطمح أيضا إلى أن يحارب بالكلمات، أن تتحول الكلمات بين يديه إلى شظايا، وأن تكون لها فاعلية السلاح. فالشاعر الحق لا يستطيع أن ينفصل عن جراح وآلام شعبه، ولا يستطيع الشعر أن يبرر حتى وجوده، إذا لم يكن معاناة للواقع وإحساسا عميقا به. ومن ثم فإن الشاعر الفلسطيني لا يستطيع أن يستعير من القاموس كلماته، ولكن من الجراح والآلام والتعاسات اليومية العديدة.

لقد وجد الشاعر الفلسطيني اللغة الثورية النابضة المتدفقة بالدماء والحيوية قريبة منه أشد القرب، وجدها في صلب عملية الحياة الحيوية للجماهير في الأرض المحتلة. في تشبثها بأرضها، ومقاومتها للمحتل، وممارستها للحياة بإصرار عجيب، وحيوية فائقة. هذه اللغة التي تكتبها الجماهير لم يجدها شعر المقاومة صدئة أو متحجرة بل وجدها متوهجة الحروف حادة كالنصال، حارة ومتدفقة الدماء لهذا نبذ شاعر المقاومة لغة القاموس ومضى يبحث عنها في واقعة اليومي ويتلمسها في كل شيء حوله في حياته وحياة شعبه.

يقول محمود درويش مبلورا هذا المنطلق في قصيدته «الورد والقاموس»:

آه.. هل أدركت قبل اليوم

أن الحرف في القاموس يا حبي ، بليد

كيف تحيا كل هذي الكلمات !

كيف تنمو؟ كيف تكبر؟

نحن مازلنا نغذيها دموع الذكريات

واستعارات.. وسُكر !

وليكن..

لابد لي أن أرفض الورد الذي

يأتي من القاموس ، أو ديوان شعر

ينبت الورد على ساعد فلاح ، وفي قبضة عامل

ينبت الورد على جرح مقاتل

وعلى جبهة صخر.

من هذه الآلام والجراح ينبض شعر المأساة. من سواعد الفلاحين وقبضات العمال وجراح المقاتلين. من صلابة الشعب وصموده يولد شعر المأساة.

وإذا كان معنى المأساة متمثلا دائما في قلوبهم وأمام أعينهم، فإنهم لم يكتفوا بذلك الإحساس، وإنما كان تمثل المأساة دوما الطريق إلى الثورة. إنهم يدركون أن لا أمل إلا بالثورة، والثورة الدائمة التي لابد لها من تضحيات وبذل وفداء. بالثورة وحدها يتحقق الأمل، بل إن الثورة أخذت نف معنى الأمل. وما دامت هناك ثورة فإن الأمل يبقى متجسدا حيا في طريقها. وقد اتخذت الثورة في فكرهم مظهرا آخر، فالثورة حياة والثورة الطريق للبقاء، ليست هي ثورة لتحقيق مكاسب أو تحسين وضع، ولكنها ثورة لتحقيق الوجود، لإثبات الذات، لتحديد مكان لهذا الإنسان تحت الشمس، يقول محمود درويش:

فالوحش يقتل ثائرا

والأرض تنبت ألف ثائر

يا كبرياء الجرح ، لو متنا

لحاربت المقابر

فملاحم الدم في ترابك

ما لها فينا أواخر

حتى يعود القمح للفلاح

يرقص في البيادر.

التوأم الشعري سميح القاسم و محمود درويش

يربط بين ري الأرض بالدم وبين الجني. فالأرض لكي تثمر ويرقص القمح في البيادر لابد أن تُروى وتشبع، وهي هنا ترتوي من ملاحم الدم التي تروي ترابها لتنبت الثوار لا القمح والثمر وحدهما، هذا الربط العضوي يمنح للتعبير قوة وعمقا وأبعادا.

لقد قدسوا الثورة/ الأمل، يرتدون من أجلها زي المقاتل مع أنهم قدموا من البذل ما يرتفع بهم لطبقة القداسة ولكنهم يفضلون أبدا أن يكونوا مقاتلين حتى تتحقق الثورة وحتى تظل مشتعلة. وتبقى الثورة معنى متصلا واستمرارية دائمة حتى النصر، يقول محمود درويش:

تعالوا يا رفاق القيد والأحزان

كي نمشي

لأجمل ضفة نمشي

فلن نقهرْ

ولن نخسر

سوى النعش.

ويستمدون من الجرح القوة والإصرار، ويمتد طريق المناضلين فوق الألم والعذاب، فوق الدمار والأشلاء حتى الوصول إلى النصر:

وأنا أبصق في الجرح الذي

لا يشعل الليل جباه !

خبئي الدمعة للعيد

فلن نبكي سوى من فرح

ولْنَسَمِّ الموت في الساحة

عُرسا. وحياه !.

الثورة هي الأمل دائما. ومن غور الجرح يكون الضياء. كأنهم يحتقرون الألم، أو يمتصونه ويختزنونه حتى يتحول في نفوسهم إلى فرح، سيكون غدا من الفرح حتى ولو لم توصلهم إليه إلا زفة الموت.

في نفس السياق نجد الشاعر سميح القاسم تبلغ لديه معنى الشهادة ذروة الوعي ويطغى على ما دونه، فلا يحول بين الشاعر والاستشهاد أي حائل وأي سبيل من سبل الاضطهاد. فقد يُعزل من عمله ويحرم قوت يومه ويبيع متاعه، ويعمل «حجارا وعتالا وكناس شوارع» وقد يجوع حتى ليأكل من روث المواشي، دون أن يوهن ذلك كله من عزيمته ويفت في عضد صموده، بل يقسم أن يُقيم على مقاومته «حتى آخر نبض من عرقه»:

ربما أفقد - ما شئتَ - معاشي

ربما أعرض للبيع ثيابي وفراشي

ربما أعمل حجارا.. وعتالا.. وكناس شوارع

ربما أبحث ، في روْث المواشي ، عن حبوب

ربما أحمد عريانا وجائع

يا عدو الشمس.. لكن لن أساوم

وإلى آخر نبض في عروقي.. سأقاومْ !!.

إذن، لابد من المقاومة والصمود مهما كانت فداحة الثمن، فهذا الطريق

وحده هو طريق الخلاص، بعدما وقعت كل الأرض الفلسطينية في الأسر، وبعدما انزاحت عن عيني الفلسطيني جميع الغشاوات والأقنعة.

وبعد، فما هو معنى الشهادة إن لم يكن تحملا لأقسى أنواع الاضطهاد في سبيل العقيدة؟، قد تكلل الشهادة ذاتها بالموت، إنما يكون ذلك في نهاية مطافها مع الظلم.

وشاعرنا سميح القاسم كثيرا ما يعبر عن صموده ويقين النصر، منشدا أناشيد التحدي والصمود مدركا أن الموت مقدمة للبعث والحياة:

فهاتوا الهراوات.. هاتوا المشاعل

وألقوا المسابح للنار ،

ألقوا غبار القرون

وقوموا نقاتل !

فالقتال وحده هو الذي يستطيع أن يضع غد القضية الفلسطينية وأن يشيد صرح مستقبلها، قتال لا يخاف ولا يجبن ولا يتوقف. لا تضعفه ضراوة العدو ولا تفل عضده. بل إن مقاومة العدو له لا تزيده إلا اشتعالا لأنها تُعلم الفلسطيني أن يسير على الدرب المؤدي إلى الصباح، وهو يعرف من قبل أن الدرب طويل وشاق وأنه لابد في نهاية المطاف منتصر، ما عليه إلا أن يواصل المقاومة برغم العسف والاضطهاد والمحاربة في القوت والرزق، إن صموده ومواصلته للمقاومة هي وحدها التي ستعيد فلسطين، ومن ثم فإنه يصرخ بضرورة استمرار هذه المقاومة:

ربما تُحرقُ أشعاري وكُتْبي

ربما تطعم لحمي للكلاب

ربما تبقى على قريَتنا كابوسَ رعب

يا عدو الشمس.. لكن لن أساومَ

وإلى آخر نبض في عروقي.. سأقاوم

سأقاوم..

سأقاوم..

سأقاوم !!..

ونكتفي بهذه النماذج تمثيلا لظاهرة شعر المقاومة الفلسطينية بالأرض المحتلة، هذه النماذج الشعرية يعود معظمها إلى ما كتب في العقد السادس من القرن الماضي، خاصة بعد هزيمة 1967، وقد تخطى المجيدون من هؤلاء الشعراء هذه المرحلة، على المستوى الفني، مع تطويرهم للعديد من أدواتهم الفنية وبحثهم عن صيغ أفضل قادرة على تجسيد معاناتهم الخاصة والعامة.

ويمكننا الآن، أن نشير، بإيجاز، إلى أهم سمات شعر المقاومة في الأرض المحتلة، بما يلي:

-شيوع نبرة التحريض وبث روح القتال والتضحية في مقاومة المحتلين والتصدي لعسفهم، والدعوة إلى التمسك بالأرض والصمود فوقها ولو كان هذا الصمود داخل السجون والمعتقلات. وبث الكراهية ضد جوهر الاحتلال والقيم التي تتولد عنه من تفرقة عنصرية وعرقية وروح استعلاء مقيتة.

-غلب على العديد من قصائدهم الأسلوب الخطابي المباشر الذي يحيل التجارب إلى أفكار متوهجة ببعض حرارة الانفعال والحماس والإيقاع.

-ارتباط الشعراء بالجماهير، فكان شعرهم غناء لآلامها وتعبيرا عن مشاعرها وأحاسيسها وطموحاتها.

-ارتباط الشعراء مع أرضهم ومعانقتهم لترابها، حيث تحول هذا العناق لديهم إلى أغان وأناشيد، وقصائد رائعة، كما تحولت قضية الأرض إلى قضية شعب يقاوم بالرصاص، لا قضية لاجئين مشردين.

-سمة التفاؤل الثوري الدائم، فالشاعر، هناك، يعيش في المستقبل كما يراه ويؤمن به، وهو يجتاز بعواطفه وخياله حدود الزمن وكل الظروف الراهنة والمصاعب القائمة والآلام والمحن ليركز على المستقبل الفلسطيني/ العربي، حيث يرى أن هذا المستقبل مملوء بحلم الحرية والخلاص من كل القيود والعقبات.

-مهما كان الرصيد الفني لهذا الشعر، في تلك المرحلة، فحسبه أنه غنى نشيد الكرامة الإنسانية والصمود، ونشدان الحرية الكاملة، واهتدى إلى بعض الحقائق الإنسانية العامة. بالإضافة إلى أهميته التاريخية لأنه وُفق، بامتياز، في التعبير عن نضال وصمود شعب أبي مقاوم، يسير نحو الخلاص منتصب القامة ، مرفوع الهامة.

مصادر النصوص الشعرية المعتمدة في هذه المقالة، هي:

1 – ديوان فدوى طوقان - دار العودة ، بيروت ، ط1978/1.

2 - ديوان توفيق زياد – دار العودة، بيروت ، ط1970/1.

3 – ديون سميح القاسم - دار العودة، بيروت ، ط1970/1.

4 – ديوان محمود درويش (المجلد الأول) – دار العودة، بيروت، ط1971/1

حديث مع القصاص المغربي عبد المجيد بن جلون

أجرى الحديث: محمد مصطفى القباج

احتضنت كلية الآداب والعلوم الإنسانية التابعة لجامعة محمد الخامس بالرباط، مستهل شهر مارس المنصرم (3202)، ندوة وطنية علمية حول الأديب المتميز عبد المجيد بنجلون. وقد تحدث في جلستي هذه الندوة العلمية، التي أقيمت بشراكة بين الكلية سالفة الذكر ومؤسسة فكر للتنمية والثقافة والعلوم والتي حضر أشغالها نجل الفقيد الأستاذ وائل بنجلون، نقاد وباحثون مهتمون بالإنتاج الأدبي لهذه الشخصية: نجيب العوفي وعبد القادر الشاوي وحسن البحراوي وعبد الجليل ناظم وصلاح بوسريف وفاطمة بنطاني ومزوار الإدريسي وجمال بوطيب وعبد اللطيف الوراري...

وقد وقع بين يدي حوار ثري أجراه الأستاذ مصطفى القباح مع هذا المبدع المتعدد ونشره في مجلة «آفاق»، الصادرة عن اتحاد كتاب المغرب العربي، في عددها المزدوج الأول والثاني من السنة الثالثة 6691، الخاص بالقصة القصيرة بالمغرب؛ فأمعنت النظر فيه ووجدت أنه يتناول قضايا شائكة ما زالت تحتفظ براهنيتها داخل الساحة الثقافية والأدبية في بلادنا. ومن ثمّ، أحببت أن أتقاسم هذا الحوار مع قراء الملحق الثقافي لجريدة «العلم» الغراء، التي تولى هذا الرجل إدارتها في مرحلة سابقة، وأستأذن الدكتور القباح في إعادة نشره؛ وهذا نص الحوار.

عبد الله بديع

النشر في المغرب مغامرة كبرى

الأستاذ عبد المجيد بن جلون من رواد القصة المغربية، تعتبر طفولة قصصه وشبابها من النماذج الأصيلة لأدب يجمع فنية القالب والتزام المضمون للقضايا الوطنية، لقضايا جيل المقاومة.

وفي نطاق عددنا الخاص بالقصة، كان من اللازم علينا أن نتصل بالأستاذ ابن جلون ليتحدث لنا عن فنه وعن آرائه في النشاط الأدبي في المغرب.

الأستاذ عبد المجيد بن جلون من مواليد الدار البيضاء سنة 9191.

تابع دروسه بمدينة فاس، حيث حصل فيها على شهادة الدروس الابتدائية وشهادة الدروس الثانوية.

تابع دراسته في القاهرة، حيث حصل على ليسانس من كلية الآداب بجامعة القاهرة، وكان ذلك سنة 3491.

أحرز على دبلوم الصحاة من المعهد العالي للصحافة سنة 5491.

عين سنة 6591 مديرا لجريدة «العلم».

التحق سنة 8591 بوزارة الخارجية، وفي السنة نفسها عين وزيرا مفوضا فسفيرا بالباكستان. وفي سنة 2691، عاد إلى المغرب، وعين رئيسا لقسم آسيا وإفريقيا بوزارة الخارجية.

يعتبر الأستاذ عبد المجيد بن جلون من مؤسسي «جبهة الدفاع عن مراكش» بالقاهرة.

تولى سنة 0591 سكرتارية مكتب المغرب العربي، الذي حل محل «جبهة الدفاع عن مراكش».

مثل المغرب في مؤتمر باندونغ.

من مؤلفاته: هذه مراكش، مارس استقلالك، وادي الدماء، في الطفولة (رواية في جزأين، لم يظهر الجزء الثاني منها)، براعم (ديوان شعر).

التحقت بالأستاذ ابن جلون في مكتبه بوزارة الشؤون الخارجية، حيث كنا على موعد. كان سيادته في انتظاري وعلى ملمحه الاستعداد للحديث والمناقشة.

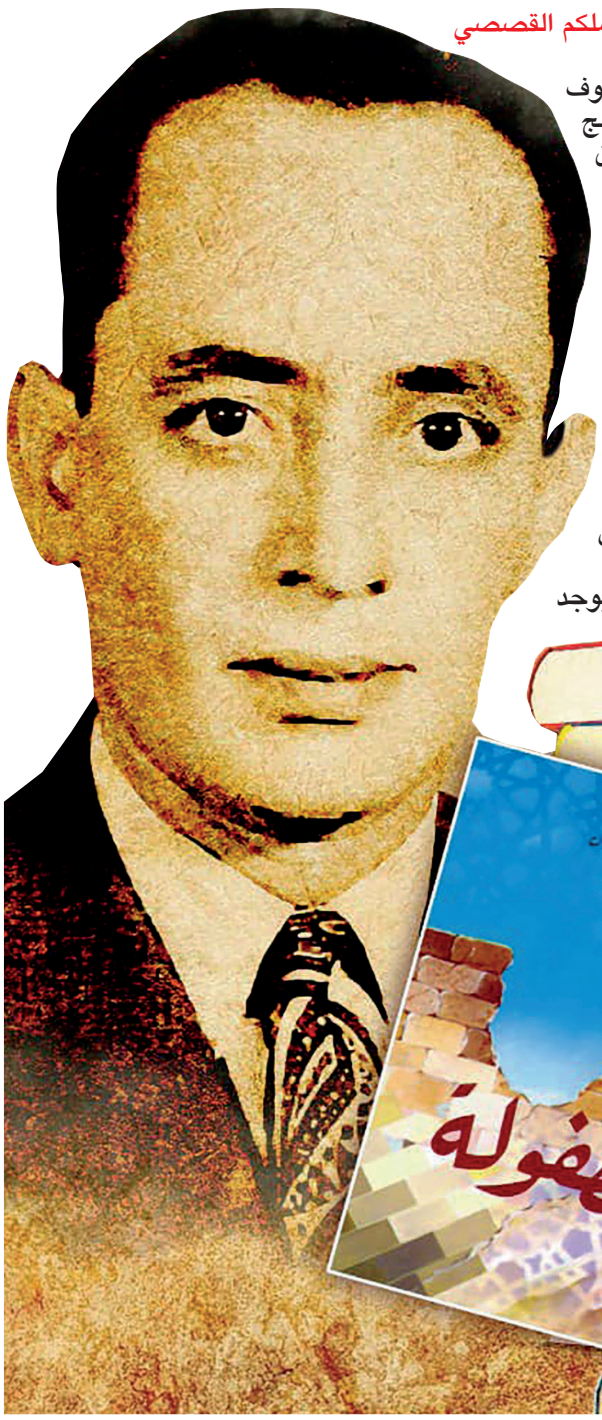

قلت لمحدثي: لعل أول ما سنرجوه منكم إعطاء فكرة عن عملكم القصصي واتجاهكم..

بادي ذي بدء، أؤكد أنني لا أسير وفق اتجاه أدبي معروف وليس لي اتجاه خاص. أعني بالاتجاه: العمل وفق برنامج مخطط يهدف إلى تأكيد فكرة أو التزام قالب قصصي معين. إن قصصي هي حوادث معاشة، يمكن أن نستخلص منها أفكارا وآراء مجتمعية خاصة. إن الغرض من القصة في نظري هو أن تصور في عين القارئ حياة واقعية، بكل ما في هذه الحياة الواقعية من غنى وأصالة.

القصة حقائق لا تقبل التعديل

بالمناسبة، ما رأيكم في ما قاله النقاد عن قصصكم، وخاصة منه عن قصة «في الطفولة»؟

صراحة، أنا لا أحب قراءة ما يكتبه النقاد؛ ذلك أني أعتبر عملي منتهيا بمجرد نشري له، فلا فائدة من اطلاعي على آراء النقاد ما دمت لن أستفيد منهم ولن أتمكن من إدخال أي تعديل على عملي، فالقصة حقائق لا تقبل التعديل.

ولي وجهة نظر أخرى في الموضوع، أني أعتقد أنه لا يوجد في بلادنا نقد جدي.. النقد الممارس الآن يقوم على العواطف والحزازات؛ في حين أن النقد الموضوعي الرفيع البناء يقوم على أساس الصراحة والتفهم والتعمق.. يجب أن لا يعزب عن بالنا أن الناقد أوسع أفقا من الأديب، فبصعوبة نحصل على أدباء وبصعوبة أكثر يمكن الحصول على نقاد.

يشاع أن لكم جزءا ثانيا لقصتكم «في الطفولة».. ما أخبار هذا الجزء؟

الجزء مكتوب باللغة العربية، وقد سبق أن نشر مجزءا في مجلة «رسالة المغرب» وقد منع الفرنسية خلال عهد الحماية، نشر الجزء في قصة متكاملة. والجزء الثاني من قصة «في الطفولة» يعتبر الفترة الثانية بعد رجوع القصاص إلى المغرب، ويتضمن وصفا لصورة الحياة الاجتماعية

المغربية، حسب ما هي منتظمة في فكري وحسب وعيي لها.

القصة والحياة

هنا دخلت مع الأستاذ القصاص في مناقشة قلت له: ألا يمكن، سيدي الأستاذ، اعتبار نقل صور الحياة الاجتماعية المغربية وتحديد الموقف منها التزاما أو اتجاها اجتماعيا واقعيا؟

أكرر عليك أنني لا أتمذهب في كتابتي، ولا أحاول التزاما أنا لا أميل إليه ولا يخطر ببالي. إن عملي القصصي هو أن أنقل لقرائي صورا وحقائق في سياق الأحداث المنتظمة، على القارئ نفسه أن يحدد التزامه واتجاهه. إن القصة كالحياة نعانيها، وبعد ذلك نحدد موقفنا منها.

إذا لم يكن لكم أي اتجاه، ولا تميلون إلى الالتزام. ما هي المؤثرات الأدبية أو الفكرية على أدبكم.. وبعبارة أخرى: هل تفضلون كاتبا من الكتّاب؟

في الواقع، ليس من حقي ككاتب واع أن أترك كاتبا يؤثر فيّ إلى حد أن أكون نسخة من فنه واتجاهه. إني أقرأ الكتاب الآخرين وأتذوقهم، وربما يدفع بي هذا الذوق وتلك القراءة إلى اختيار نماذج مما طالعت وترجمته لتعميم النفع به عند جمهورنا في المغرب والعالم العربي.. وهكذا سبق لي أن اخترت مجموعة قصصية من الآداب الإنجليزية والسوفياتية وترجمتها ونشرتها في مجموعة.

الشقاء البشري في القصة السوفياتية

ما هو في نظركم طابع القصة السوفياتية؟

القصة السوفياتية اجتماعية، ينعكس فيها الاعتناء بالقضايا الاجتماعية والشقاء البشري، عند الفقراء والجنود في جبهة القتال وفي المقاهي. إن القصة السوفياتية تحاول إعطاء صورة عن قوة الشخصية الروسية وقدرة مواجهتها للقضايا الواقعية... وأكاد أقول إن القصة السوفياتية لعبت دورا كبيرا في التمهيد للثورة السياسية وبث الوعي بضرورتها.

والقصة الإنجليزية؟

تمتاز بنهج أسلوب التصوير والتحليل النفسي، يعتمد القصاص على التدقيق في التعبير والوصف والتنسيق القصصي. كما يمتاز مضمون القصة الإنجليزية بالتنوع، والشيء الذي لفت نظري في بعضها السخرية من الإقطاعيين.

مجموعة عن المقاومة

إذا سامحتم، سنعود إلى الحديث عن نشاطكم الأدبي.. هلا حدثمونا عن الأعمال التي تنجزونها حاليا؟

أتممت إنجاز مجموعة قصصية، في طريقها إلى النشر. تصور هذه المجموعة الكفاح الوطني في ظلال الأطلس. حاولت أن أصور فيها أروع ما قام به الفدائيون المغاربة. وأعتبر هذه المجموعة تتميما لمجموعة قصص «وادي الدماء»؛ لكونها تعطي صورة عن مشاعري نحو الظلم الواقع على المغاربة، وتمجيدا مني للبطولة المغربية في مقاومة الظلم.

متى تنوون نشر هذه المجموعة؟

لن أخفي عنك أن النشر في المغرب صار مغامرة كبرى؛ فليست هناك ضمانات لدى الكاتب ولدى الناشر على أن ما سينشر سيجد طريقه بسهولة إلى النجاح. إن القطيعة القائمة اليوم بين الكاتب والقارئ من جهة وبين الناشر والبائع من جهة ثانية تكاد تصل بنا إلى مستوى اليأس، وكثيرا ما نتساءل عما إذا كانت هناك مدبرة ضد الكتاب العربي.

ليست هناك ضمانات أن ما سينشر في المغرب سيجد طريقه بسهولة إلى النجاح

هذه الاعتبارات والتخوفات تجعلني أتريث في نشر مجموعتي القصصية؛ فأنا من طبعي عدم المغامرة بالأشياء والأفكار التي أعتبرها نفيسة.

الفن القصصي في المغرب بخير

أعتقد، سيدي الأستاذ، أننا سنقضي يوما ما على هذه التخوفات، حين يفرض الأدباء أنفسهم، وعلى ذكر الأدباء، ما رأيكم في الحركة القصصية والأدبية في المغرب؟

أراها بخير، لي إعجاب خاص بزميلي الأستاذ عبد الكريم غلاب؛ فمجموعته «سبعة أبواب» أروع المجموعات القصصية التي قرأتها في حياتي. لقد توفق الكاتب في التعبير المشرق، والملاحظة الدقيقة، وامتاز فيها على الأخص بتعويض عدم حركة جسمه بحركة فكره، بحيث فتح حواسه الخمس على العالم طوال ستة أشهر، ليأخذ من هذا العالم مضامين ومادة للتعبير، إنه في الواقع لنَفَس طويل.

في ميدان القصة القصيرة، أسجل هنا إعجابي بعدد من الكتّاب الشباب، وخاصة بأسلوبهم البديع، رغم عدم التنوع في المضامين. ولعل هذه الظاهرة نتيجة من نتائج التمذهب أو الالتزام الذي يجعلنا ننظر إلى الأشياء بنظارة واحدة. إنني أدعو شبابنا إلى أن يزيلوا عن أعينهم الغشاوات التي تخفي العالم عنهم.. يجب أن ننفتح على العالم، وننظر إلى الأشياء في ذاتها وبما تتميز به.

المسرح متقدم

والمسرح؟

المسرح متقدم، الجهود المبذولة بصدده، والتي نشهدها على المسارح وعلى التلفزيون، تدعو إلى الارتياح.

لا أريد أن أنتهي من حديثي عن الحياة الأدبية والفكرية في المغرب دون ذكر رواية «بقيت وحدي» الشعرية التي كتبها الأستاذ أبو بكر اللمتوني، إنها رواية رائعة، تصور فترة مظلمة في تاريخ المغرب وتاريخ القصر الملكي في هذه الفترة، عندما أقدم الاستعمار على جريمته النكراء، جريمة نفي الملك العظيم محمد الخامس، وتولية ابن عرفة. لقد عمل الكاتب على أن يصور الزيف الذي تسرب إلى القصر آنذاك، وما يرمز إليه ذلك الزيف من إنذار بنهاية الاستعمار وأذنابه؛ إنها رواية تستحق التنويه.

طغيان الفرنسية

ربما تبقى لديكم ما تقولونه لقراء مجلة «آفاق»؟

نعم، ما يمكن أن أقوله كثير جدا؛ لكنني سأكتفي بالرجوع إلى أزمة النشر في بلادنا.

يمكن القول إنه مما لا يشجع على النشر عدم اهتمام القراء بما ينشر، وليست أزمة القراء خاصة بنا؛ إنها أزمة عالمية؛ فعصرنا يمتاز بالسرعة والناس يفكرون في ما قل ودل. أصبح الانصراف إلى التأمل والقراءة لمدة معينة وفي نطاق موضوع واحد من المظاهر النادرة التي يمكن أن تعثر عليها في القرن العشرين.

إن الحياة المادية طغت علينا، وصرنا لا نبحث إلا عن المريح والقيام بأقل ما يمكن من جهد، للاستفادة بأكبر ما يمكن من النفع.

شيء خاص نعاني منه في مغربنا، ألا وهو طغيان الفرنسية. إن هذا الطغيان يستفحل، وأصبحنا نرى أن مليونا من شبيبتنا يقرؤون بالفرنسية في الوقت الراهن.

وهذا مشكل لم يصل إلى هذا الحد من الخطورة في وقت الاستعمار نفسه، كانت اللغة العربية على عهد الاستعمار فارضة نفسها بسبب الوعي الوطني. أما الآن، فالفرنسية تنتشر من تلقاء نفسها، وأصبحت لا مفر منها للعامل والصانع والموظف... إلخ

إن طلبتنا يتهربون من قراءة العربية؛ لأنها أصبحت تلفيقا، أصبحت عبارة عن جمل ومصطلحات ملفقة، ذلك لأننا نفكر بالفرنسية ونكتب بالعربية، وهذا إن لم يكن نتيجة تشويه الأسلوب العربي فعلى الأقل فقدان الأصالة فيما نكتب وما نفكر فيه. وأرى حكاية التقطع في الأسلوب القصصي الحديث آتية من هذه الظاهرة.

أعتقد أن كتّابنا العرب سيعملون على نشر الوعي بهذه القضايا وإكبار عدد المهتمين بها حتى نهيئ جيلا من القراء الواعين؛ وبالتالي نمهد لحل ناجع لمشكلة النشر والتوزيع.

أؤكد لك أن العربية لن تضيع في المغرب، وأن الصعوبات التي تعانيها لغتنا صعوبات خطيرة؛ ففي الماضي، فسدت اللغة في سائر العالم العربي ما عدا المغرب، والآن جاء الدور على المغرب، وستلتحق بلادنا بلا شك بأخواتها البلدان العربية في سبيل إعلاء شأن اللغة.

استوى محدثي فوق أريكته، فهمت من هذا الاستواء أنه يشير إلى رغبته في الراحة التي نحاول استشعارها بعد عمل شاق؛ فاستأذنت الأستاذ في الانصراف شاكرا له حسن استقباله باسم مجلة «آفاق» وأسرتها.

المصدر: مجلة «آفاق»، يصدرها اتحاد كتاب المغرب العربي، السنة الثالثة العددان الأول والثاني، 1966، خاص بالقصة القصيرة بالمغرب، صص: 131 ـ 137.

في ذكراه

محمد الصباغ عُنقود ندَى

نجيب العوفي

و(عنقود ندى) عنوانٌ لإحدى روائع محمد الصباغ، أستقيه هنا عنوانا لهذه الكلمة - الشهادة، لأنه يقطّر لنا زُلال إبداعه .

في حوار مبكّر مع محمد شكري أجراه الزبير بن بوشتى ويحيى بن الوليد، يقول عن بداية ميوله الأدبية وكيف ركبه هاجس الكتابة: (كنت في عام **1960** تلميذا في مدرسة المعلمين في تطوان، ولم تكن الكتابة هاجسا من هواجسي أو لم تكن تخطرعلى بالي. كنت أحد روّاد مقهى كونتينتتال في تطوان. وكان يرتاد هذا المقهى روّاد ينتمون إلى الثقافة وعلى رأسهم محمد الصباغ .(..) سألت شابا كان جالسا جواري عن ذلك الشخص الذي يهتمون به أكثر من الآخرين. قال إنه الكاتب محمد الصباغ . هنا فكرت في أن الكتابة لها تقدير كبير. وبما أنني أنتمي إلى طبقة مسحوقة ومغمورة فإذا أنا أصبحتُ كاتبا مشهورا فسيُعطى لي نفس الاعتبار الذي يُعطى للصباغ .) جريدة القدس العربي – **2002/01/30**

وفي سياق قريب من هذا التاريخ، كنّا ثلّة معدودة من طلبة القاضي عياض بتطوان شداة وهواة أدب، نتسلل مساء إلى شارع محمد الخامس لنلقي نظرة فضولية على الكاتب الشهير محمد الصباغ جالسا بأبّهته الرومانسية في مقهى كونتيننتال أو أحد النوادي المجاورة. كنا نسْترق إليه النظر ونتهيّب من الدنوّ منه، مكتفين بقراءته عن بعد في خلواتنا الأدبية الأولى . وقد ظل هذا التهيّب يلازمني شخصيا باستمرار وإن استوى القلم بين الأصابع مع الأيام. فلم أكتب عنه إلا في فترة متأخرة لأفرغ مكنون ومخزون إعجابي بأدبه الطليّ البهيّ .

وفي الرباط تسنىّ لي ما لم يتسنّ في تطوان، فحظيت باللقاء مع الصباغ واغتنام مُجالسته ومُؤانسته. وكان ذلك، للمفارقة، في العقد الأخير من حياته بعد طفولته الستين، حسب عنوانَ سيرته الرائعة. كان يهاتِفني بين الفينة والأخرى، لألتحق بدارته الوريفة المُنيفة (روْح وريحان) بحي الرياض في الرباط، ونغْنم أويقات أدبية بهية وشجية من أجمل الأويقات التي غنمتها، بمنأى من عُرام وزحام اللقاءات الثقافية والإيديولوجية التي كانت تملأ فضاء مرحلتنا .

ومعروف عن الصباغ كآخر الرومانسيين العرب الكبار، أنه كان محبّا للعزلة ناسكا في محرابه كصديقه المهجري ناسك الشخروب ميخائيل نعيمة. والمهجريون بالمناسبة هَم أعزّ خلانه وأخدانه، إيليا أبو ماضي، ميخائيل نعيمة، جبران خليل جبران، أمين الريحاني، نسيب عريضة، بولس سلامة إلخ . كما كان الشعراء الإسبان في الضفة الأخرى الإيبيرية، رفائيل ألبيرتي، خيراردو دييغو، خوان رامون خيمينيث، فيثينتي أليكساندري، تيرينا ميركادير.. تكملة العائلة .

محمد الصباغ / ورائع ان يفكر الجيل الأدبي التطواني الجديد في تذكره واستعادته، وهو الذي حكى كثيرا عن تطوانه .

رائع أن يُستعاد هذا الرومانسي الكبير في زمن الجوائح والحروب والانهيارات.

في حضرة هذا المبدع الخلاق تأخذك روعة اللغة التي ينحت بحذق ومهارة أحجارها الكريمة وفُصوصها النفيسةَ، ويطرّز بشعرية بُرودها ونصوصها، حتى أضحى نسيجَ وحده في هذا المضمار. أضحى أسلوبا فرْدا متميزا ومدرسة أدبية وبلاغية قائمة بذاتها وصفاتها .

إن محمد الصباغ يقدم لنا في هذا المجال تجربة إبداعية غنية ومثالية، ما أحوجنا في ظروفنا الحالية والآتية حيث طمّ سيل العولمة وجوائحها وطمّ معه سيل الغثاثة الأدبية، ما أحوجنا إلى أن نرهف لها السمع ونعيد قراءتها من جديد في سياق الهُنا والآن .

ولا بد هنا من لحظة مكاشفة ونقد ذاتي صريح، ونحن نستعيد ذكرى هذا الرجل ونعترف له بأفضاله وسوابغ سوابقه الأدبية . فقد لاقى منا للأسف بعض عقوق وجُحود في زحمة انشغالاتنا ومعاركنا الحداثية والإيديولوجية على امتداد السبعينيات والثمانينيات والتسعينيات من القرن الفارط. وكنا ننظر إلى الرومانسية والأدب المجنح كتوعّك أدبي ونكوص عن معمعان الحياة .

لكن الإبداع الحق لا ينصُل بريقه ولا ينضُب ماؤه ورُاؤه مع تقلبات الأيام والليالي. بل لا تزيده هذه التقلبات إلا بهاء ورواء .

وشخصيا، لا أملك إلا أن أعود بين فينة وأخرى إلى ارتشاف زلال الصباغ وعناقيد نداه .

إنه باقة زهر، في فضاء كثر فيه الحسَك والشوك .

وسمفونية راقية، في طوفان من الهرْج والمرج .

وشخصيا أيضا، لا يمكن لي أن أتحدث عن الصباغ، إلا بشيء قريب من لغته وبأسلوب قابس من مشكاته. وأعترف أنه أحد أساتذتي ومراجعي الإبداعية الأولى.

محمد الصباغ، عنقود ندى إبداعي مكتنز وريّان، يروّيك كل مرة بشَهده وزلاله .

وليس قصدي في هذه الكلمة، أن أشرّح هذا العنقود من الندى وأعتصر حباته واحدة تلو الأخرى. بل هي تأملات وتداعيات على هامش التجربة.

وحسبي أن أشير إشارة إلى بعض ريادات ومناقب أدبية، ترتبط بإسم محمد الصباغ .

المنقبة الأولى، إن محمد الصباغ صاحب أسلوب فريد وطِليّ في الكتابة الأدبية، يجمع بين شعرية الشعر وشعرية النثر، ويضفر منهما سبيكة أدبية فاتنة ومتميزة تحمل بصمته الخاصة ووشمه الخاص. إنه أحدُ أعمدة ورَادة قصيدة النثر البارزين في عالمنا العربي منذ عقود مبكّرة وبعيدة، كان فيها هذا النوع الأدبي طرير العود يتلمّس أولى خطاه على الطريق.

ومن أسف،

فإن كتاّب قصيدة النثر المتكاثرين عندنا أغفلوا أو تغافلوا هذا الأب الروحي الرائد. وهو لو علموا وأنصفوا، حُجتُهم وقدوتهم ومرجعهم .

المنقبة الثانية، إن محمد الصباغ يُعد بحقّ أحد مؤسسي الأدب المغربي الحديث ومجدّدي لغته وأسلوبه من بعد رُقاد وكساد، وذلك من خلال كتاباته الجديدة والجريئة والرشيقة التي توالت على امتداد الأربعينيات والخمسينيات، أيام كان التقليد المحافظ جاثما بثقله على الساحة الثقافية والأدبية .

لقد كانت هذه الكتابات الصباغية ومن موقع هذه المدينة الغرّاء على وجه التحديد تطوان، كانت نسمة عليلة وجميلة تهبّ على فضائنا الثقافي، وضخة دم حارة تنسكب في شرايين الأدب المغربي .

كان الصباغ بُستانيا ماهرا شذّب بستان الأدب من أعشابه اليابسة وغرس فيه فسائل جديدة فنية وحداثية .

المنقبة الثالثة، إن محمد الصباغ يُعد المؤسس والمُبتكر الأول لفكرة اتحاد كتاب المغرب العربي، ومن موقع هذه المدينة أيضا، في منزل عبد الخالق الطريس أولا على وجه التحديد، حيث صدع بهذه الفكرة في جمع من المثقفين والأدباء، ثم في المكتبة العامة بعدئذ في نيابة التعليم بتطوان حيث كان يشتغل .

في إحدى زوراتي للفقيد أمدني بنسخة من شهادة مرقونة بتحبيره بعنوان (يسألونك كيف تأسّس اتحاد كتاب المغرب) يقول في إحدى فقراتها :

أكان ذلك ما كان ..

كان في إحدى عشيّات الشهر الخامس من السنة الستينية، بمدينة الحمامة هذه، وبالضبط في مكتبتها العامة المقروءة إذاك في مُنعطفات حدائق نيابة التعليم .

في وارف هذه الكتيبة التطوانية التي كنت أشتغل فيها مديرا لخزانة الصحف التابعة لها. وفي ذات العشية كان مؤلف (تطوان تحكي) على موعد مرتجل مع (الشخصاني) الصديق المرحوم محمد عزيز الحبابي، الذي وَفد على تطوان للمشاركة في ندوة (الفلسفة ومدارسها) التي نظمتها مجلة (نبراس الفكر) التطوانية .

هناك التقيا، فامتدت بهما تداعياتُ حديثهما إلى الوضعية الثقافية والأدبية ببلادنا، وضرورة العمل علي تنشيطها وتنظيمها، فاقترحتُ عليه تأسيس (رابطة للكتاب) سعيا للنهوض بهذه المهمة النبيلة .)

ولم يمض وقت قليل، حتى أضحت الفكرة واقعا مشخّصا وكيانا ملموسا.

ولنلاحظ أن الفكرة التي صدَع بها الصباغ كانت تتغيّا في الأساس، لمّ شمل كتاب وأدباء المغرب العربي قاطبة في مؤسسة معنوية واحدة مؤلّفة بين القلوب والأقلام .

كانت الفكرة تنزع منذ البدء منزعا وحدويا طموحا. وقد ظل الصباغ وفيا لاتحاد كتاب المغرب فاعلا فيه وحادبا عليه على توالي أجياله ومكاتبه، وكثرة مشاكله ومتاعبه. لا يصيدُ في ماء عكر ولا يوالي هذه الجهة على حساب تلك.

وليس كتابه الجميل (أطالب بدم الكلمة) سوى تحية أدبية غيورة لروح هذا الاتحاد ونضال أجياله .

هذا في الوقت الذي أصبحنا فيه الآن متخلفين عن الرواد بمسافات يُرثى لها. وأصبح فيه اتحاد كتاب المغرب، جسدا مريضا متنقلا بين غرف الإنعاش .

المنقبة الرابعة، هي انفتاح محمد الصباغ المبكر على ثقافة الشرق والغرب معا، ومدّهُ جسور التواصل والتفاعل مع الأدباء المهجريين في الرابطة القلمية والعصبة الأندلسية من جهة، والأدباء الإسبان من جهة ثانية. وكانت له في هذا الصدد علاقات وصداقات مع كبار الأدباء المهجريين وكبار الأدباء والشعراء الإسبان .

وقد ساهم بذلك مساهمة عصامية جليلةِ في التعريف بالمغرب الثقافي وإيصال صوته الأدبي إلى المحافل الدولية. كلّ ذلك في فترة مبكرة ناشئة كان فيها الأدب المغربي الحديث يَفرك عيونه للنور .

المنقبة الخامسة، تتجلّى في أناقة السّمت التي يتميّز بها الصباغ كأديب حداثي - جُنتلمان. أناقة تسِم إبداعه ومسلكه ومظهره ومخبره .

إنه كاتب لا يختلف فيه الإِنسان عن الفنان .

لستُ هنا أيضا، بصدد تعداد مناقب وخلِال مناقب الأديب الكبير محمد الصباغ. فهي مناقب وخلالَ كثر يضيق عنها المقال والمقام، وإنْ هي إلا كلمة - شهادة أبثّه عبرها بعض شعوري ونجْواي، كقارئ قديم للصباغ معجب بإبداعه مُرتوٍ من زلاله ومُواكب لمواسمه وعناقيد نداه .

فتحية إكبار وامتنان وعرفان لروح أديبنا الكبير محمد الصباغ في عليّين، حاضرا في غيابه .

وتحية تقدير لرفيقة حياته وقسيمة رحلته وأم كريماته. ووراء كل عظيم حقا، امرأة خارج التغطية .